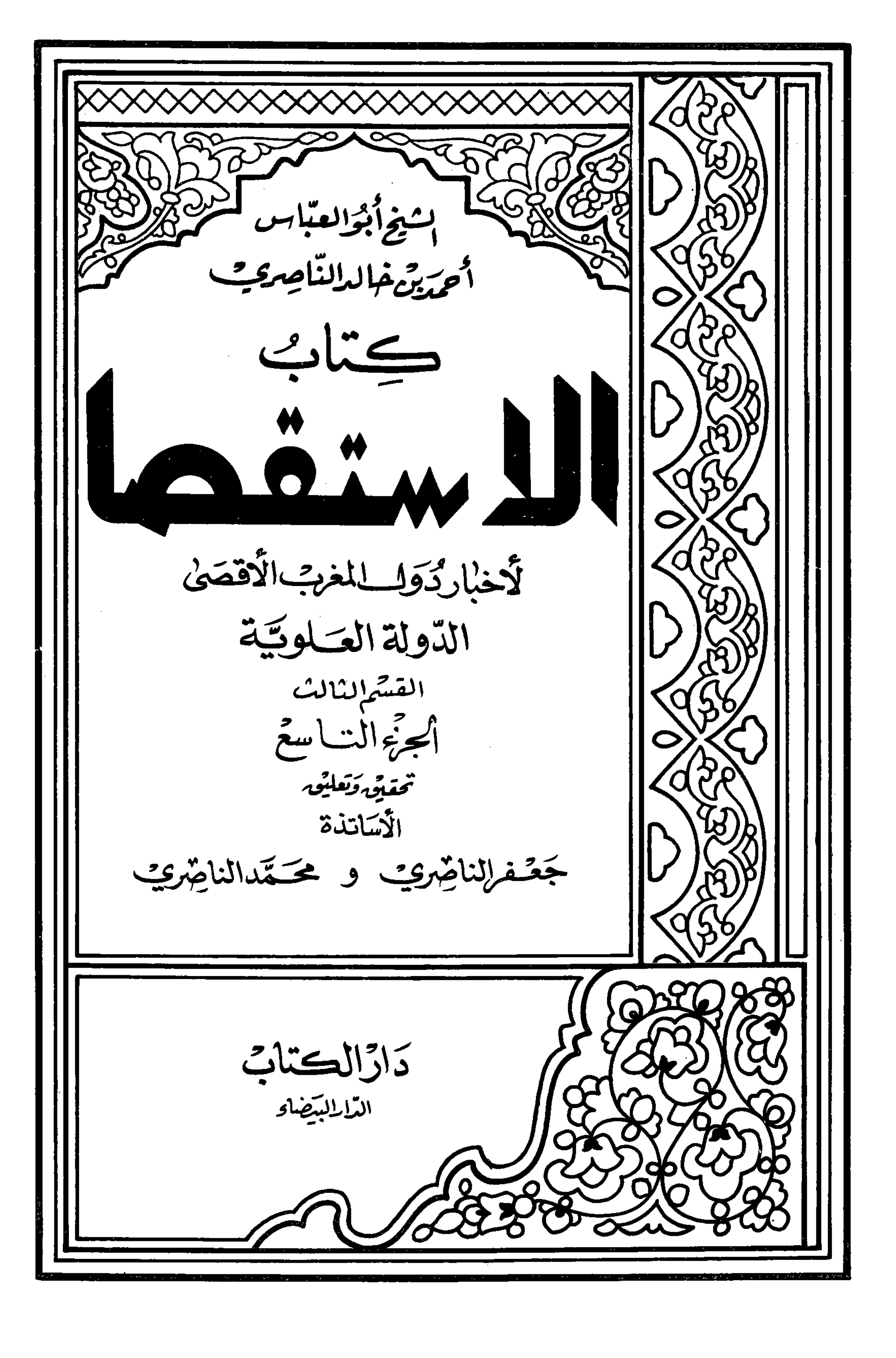


الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة العلويّة

القسم الثالث

الجزء التاسع

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

لدار الكتاب
ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة العلوية

القسم الثالث

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام وأوليته ونشأته

كان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالتقوى والعفاف متصف بالصيانة وجميل الأوصاف من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعني والجد في الأمور كلها حتى عرفت له هذه الشنشنة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والألسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه إليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده ولما بعث أولاده إلى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه في جملتهم فظهر له في تلك السفرة من الورع والدين والتمسك بأسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها في سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة إلى عمه وقال له: يا سيدي: «هذه البضاعة التي أعطيتني إنما أخذتها لأنفق منها إذا نفذ ما عندي، وكانت معي بضاعة جمعتها بقصد إنفاقها في هذه الوجهة، ولم أرد أن أخلطها بغيرها، وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله». فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير. وكان في أول أمره مقيماً بتافيلالت ثم استقدمه السلطان المولى سليمان في آخر عمره وولاه بثغر الصويرة وأعمالها

فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها في فتنة ابني يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقرت بولايته العيون وطابت الأنفاس كل ذلك فعله به ترشيحاً للأمر وتقديماً له فيه على زيد وعمرو.

بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام وبعث به إلى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته إلى فاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المفتي أبو عبد اللّٰه محمد بن إبراهيم والتاجر الأمير الحاج الطالب ابن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم وحضر أعيان الودايا وقوادهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمٰن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسرَّ الناس بذلك خاصة وعامة ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز في فلك السعود وكتبت البشائر بذلك إلى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته وبان لهم مصداق يمنه وسعادته بتوالي الأمطار ورخص الأسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار، ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية، استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأديب أبا عبد اللّٰه محمد بن إدريس الفاسي فقال:

مولاي بشراك بالتأييد بشراكا — قد أكمل الله بالتوفيق سراكا

الفتح والنصر قد وافاك جيشهما — والسعد واليمن قد حيا محياكا

الله ألبسك الإقبال تكرمة — وبالتقى والنهى والعلم حلاكا

فراسة الملك المرحوم قد صدقت — لما تفرس فيك حين ولاكا

أعدت للدين والدنيا جمالهما فأصبحا في حلى من حسن مغناكا
وزادك الغيث غوثاً في سحائبه فجاد بالقطر قطراً فيه مأواكا

ثم وردت على السلطان تهنئة عالم إفريقية ومفتيها وأديبها الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها:

نصر من الرحمٰن جل لعبده أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره في الشاكرين له سوابغ رفده
فلتبسم ثغر الهنا مستبشراً فالوقت ينطق عن سعادة جده
أن يمض مولانا سليمان الرضا وعليه تبكي الباكيات لفقده
العلم والتقوى وكل فضيلة منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى نوراً مبيناً يستضاء برشده
لو لم يكن كفئاً لما أوصى به وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الأيام ثم أراد أن تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصراً يدوم سروره للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى إلى الأعداء أقتل غصة والأوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرماً كما راق النواظر لؤلؤ في عقده
لا غرو أن جمع المحاسن كلها منهم فإرث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما ننسخ يقد أديمه حتى ولو وفى العيان برده
فلكم وكم من آخر زمناً له فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في أيامه للدين مطلع سعده
والعلم والتقوى وكل معظم عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم أتراهم يرضون إلا باستدامة وقده

الله يبقي نوره متوقداً يفنى الزمان ولا فناء لخلده
ويخص مولانا الأمير بنعمة لا تنقضي وعناية من عنده
ويديمه ظلاً وريفاً كلما حمي الورى هرعوا لجنة برده
وحسام فتح كلما نهضت به عزماته فالنصر شاحذ حده
وتمام بدر كلما اقتعد السرى لم يسر إلا في منازل سعده
وعليه تسليم تأرج نده لكنه في الفضل عادم نده
ثم الصلاة على النبي وآله والحمد في بدء الكلام وعوده

اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر بعد وقعة ظيان اتفقوا على مناوأة السلطان ومنابذته، وأنهم صاروا يداً واحدة عليه، وعلى كل من يتكلم بالعربية بالمغرب. فلما توفي السلطان المولى سليمان وبويع السلطان المولى عبد الرحمٰن زاد البربر ذلك الحلف توكيداً وشدة، وأعدوا لعصيانهم واعوجاجهم أكمل عدة، لا سيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فإنه لما فعل فعلته في وقعة ظيان من جرة الهزيمة على المولى سليمان ثم عززها بأختها من بيعته للمولى إبراهيم بن يزيد، والإجلاب فيها بالقريب والبعيد، خاف أن يأخذه بذلك من يأتي بعده من بني أبيه وعشيرته، فجد في صرف وجوه البربر عن السلطان واستعان في ذلك بأبي بكر مهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم على أن لا يتركوا بأرض المغرب ذكراً للسلطان وحزبه، وربما شايعهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفافعة والتوازيط من بني حسن وزعير وجل عرب تادلا، فلما أراد الله سبحانه نقض ما أبرموا ونثر ما جمعوا من ذلك ونظموا، جعل لذلك سبباً وهو أن الشيخ أبا عبد اللّه الدرقاوي كان مسجوناً عند الودايا كما تقدم في أخبار فتنة ابني يزيد واستمر في السجن

إلى أن بويع المولى عبد الرحمٰن، وكان ابن الغازي من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فوفد عليه أولاد الشيخ ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحوا عليه فلم يجد بداً من إظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة، فوفد على السلطان في جمع من وجوه قومه بهديتهم وبيعتهم، فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت أدراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانته فنبذوا ذلك العهد وسارعوا إلى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم، فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن في وجوه قومه وأدى الطاعة، ودخل في حزب الجماعة، وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت، فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا إيجاف بخيل ولا رجل، فقابلهم السلطان بغاية الإحسان لا سيما ابن الغازي فإنه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيبة سيره حتى كان لا يقطع أمراً دونه بعد أن سرح له الشيخ أبا عبد اللّه الدرقاوي رحمه الله.

ثم إن السلطان زوج ابن الغازي بإحدى حظايا عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي ستة، فعلا قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن إلى السلطان بعد أن كان يسايره على أوفاز، وذهب معه إلى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد إن شاء الله.

نهوض السلطان المولى عبد الرحمٰن لتفقد أحوال الرعية ووصوله إلى رباط الفتح

لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله من أمر الوفود والتهاني بحضرة فاس التفت إلى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة، فولى على فاس وصيفه أبا جمعة بن سالم الذي كان بوّاباً على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدي

محمد بن الطيب، ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على بلاد سفيان، وسار حتى وصل إلى قصر كتامة وعسكر هنالك بالكدية الإسماعيلية، وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله في جماعة من الأشراف والكتاب فيهم أبو عبد اللّه أكنسوس، وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت إلى مراكش عقب وفاة والده بقصد أخذ البيعة على أهل مراكش لأخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيمانهم، فلما صادف المولى عبد السلام الأمر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمٰن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فأعرض عما جاء لأجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيعته.

قال أكنسوس: لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمٰن من مراكش إلى قصر كتامة أمر بإدخالي عليه لشدة تشوفه إلى أخبار السلطان المرحوم. المولى سليمان، فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين، وسألني عن كل شاذة وفاذة قال: ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الأخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال: والله لا يرون مني إلا الخير، ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض إلى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفدت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيد هنالك عيد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف، ثم رجع إلى فاس ومعه أعيان قبائل الحوز الذين وفدوا عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عمه المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراكش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المبايع بسجلماسة فأكرمهم وأجلهم ولم يلم أحداً من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالإحسان، ثم ولى على مراكش ابن عمه المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها إلى أن كان منه ما نذكره، ثم أمر السلطان رحمه الله بشراء دار أبي محمد عبد السلام شقشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبة المولى إدريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية، ثم

أمر بهدمها وزيادتها في مسجد المولى إدريس رضي الله عنه وجمع الصناع والعملة على ذلك فتأنقوا فيه ما شاؤوا حتى جاء أحسن من المسجد القديم، وكان الذي تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمي بن ملوك البلغيني فكمل ذلك في مدة يسيرة على غاية من الإبداع والإتقان، وكتب الله أجر ذلك في صحيفة السلطان، وفي هذه المدة توفي الشيخ الأكبر العارف الأشهر أبو عبد اللّه سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي رضي الله عنه، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، ودفن يوم الثلاثاء بأبي بريح من بلاد غمارة وقبره شهير، وكان رضي الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة في أيدي الناس وله فيها نفس مبارك نفعنا الله به وبأمثاله.

خروج السلطان المولى عبد الرحمٰن إلى مكناسة ونقله آيت يمور إلى الحوز ومسيره إلى مراكش

لما سافر السلطان المولى عبد الرحمٰن السفرة الأولى إلى رباط الفتح كان قصده أن ينظر في أحوال الرعايا وما هي عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتي ويذر من أمرها، ثم لما عاد إلى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولم شعثه وتدارك رمقه إذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكسفت باله، وكان المولى مبارك بن علي صاحب مراكش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكايات إلى السلطان، فعزم السلطان رحمه الله على إعمال السفر إلى مراكش فخرج من فاس وقصد أولاً مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد إلى لقائه بالأعلام مرفوعة على العصي وكانوا جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمه الله: أين جند عبيد البخاري فقالوا: هذه البركة التي أسأرتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف، فدخل السلطان رحمه الله مكناسة وتفقد بيت مالها فألقاه أنقى من الراحة ووجد العبيد على غاية من القلة والخصاصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا

أثمانها، فأنعشهم وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرايات حتى صلح أمرهم وذهب فقرهم.

قال صاحب الجيش: وحاصل الأمر أن هذا السلطان رحمه الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزاهز، وصارت بعد حسن الشبيبة إلى قبح العجائز، قد تفانت رجالها وضاق مجالها، وذلك من وقعة ظيان إلى موت السلطان المولى سليمان، فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها إلا رمقاً قليلاً وخيالاً عليلاً قد وهت دعائمها، وأشرفت على الانهدام المفضي إلى حالة الانعدام، فأمده الله بضروب السعادة الخارقة للعادة، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال والعناية من الله تساعده، والفشل يباعده، حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي على أساسه، ورد روحه إلى الجسد بعد خمود أنفاسه، ولما قضى رحمه الله أربه من مكناسة صرف عزمه إلى آيت يمور وكانوا نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدي محمد رحمه الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الأرض العجيبة، ذات المزارع الخصيبة، فأضروا بجيرانهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم، فأمر السلطان رحمه الله القائد أبا عبد الله محمد بن يشو المالكي العروي أن يحتال في كيادهم والإيقاع بهم ففعل وقبض على نحو الأربعمائة منهم وبعث بهم إلى السلطان، ثم نقلهم السلطان إلى حوز مراكش وسار إلى رباط الفتح فاحتل به وعقد لأخيه المولى المأمون بن هشام على مراكش وولاه عليها مكان المولى مبارك بن علي.

ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصداً مراكش فمر بقبائل الشاوية وساس أمرهم بما اقتضاه الحال، وقتل الهاشمي بن العباس الزياني، وكان هذا قد قتل قائد الشاوية أبا إسحاق إبراهيم الوراوي احتال عليه بأن دعاه للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموضع المعروف بتادارت قرب مديونة، فأمر السلطان رحمه الله بالهاشمي أن تضرب عنقه بذلك الموضع وذلك بعد أن ولاه على قبيلته مدة، ثم مر بقبائل دكالة فأوقع بالعونات وتقدم إلى مراكش، فلما دخلها بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسي موقد نار

فتنة إبراهيم بن يزيد، فأتي به من سجن الجزيرة فضربت عنقه ونصب رأسه على باب الخميس من مراكش، وكان مسجوناً معه أبو عبد الله محمد الطيب البياز الفاسي فأخرجه السلطان من السجن ومنَّ عليه إذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور ولذلك استخدمه السلطان رحمه الله فجعله أميناً على مرسى طنجة أولاً، ثم ولاه على فاس ثانياً والله تعالى أعلم.

نكبة ابن الغازي الزموري وما آل إليه أمره

قد قدمنا أن الحاج محمد بن الغازي الزموري كان قد بايع السلطان المولى عبد الرحمٰن وسعى في سراح الشيخ أبي عبد الله الدرقاوي رضي الله عنه وأن السلطان استخلصه وصاهره بإحدى حظايا عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصل معه إلى مراكش، ثم اضطرب كلام أكنسوس في أن السلطان قبض على ابن الغازي في أول قدمة قدمها معه إلى مراكش أو بعدها، وكان السبب في ذلك أن ابن الغازي المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذي ينبغي أن تسير به الرعية مع الملوك، وكانت عادته أن يحضر بالغداة والعشي إلى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوهها على العادة في ذلك فلما كان في بعض الليالي وهو راجع إلى منزله رصده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصة فأخطأه فوصل إلى منزله وقد ارتاب بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على أن أطلق لسانه وأبرق وأرعد وتألى وأوعد، وبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور إلى أن انقطع عن الحضور بباب السلطان غضباً على الدولة، فأطال له السلطان الرسن كي يرجع فلم يرجع، وبلغ السلطان أنه يحتال في الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به إلى جزيرة الصويرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام فسجن بها مدة، ثم أصبح ذات يوم ميتاً وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف على ما قيل.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمه الله وبني جنس الصاردو وهي ثمانية وعشرون شرطاً كلها ترجع إلى تمام الصلح ودوام الأمن والمجاملة في التجارات وسائر أنواع المخالطات، والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرنتينة إن تعين موجبها عند دخول مرسى من مراسي الصاردو وكذلك هم أيضاً.

ولاية الشريف سيدي محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها

كان السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدي محمد بن الطيب بن محمد بن عبد اللّه على فاس فأقام بها مدة ثم ولاه على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض إليه النظر في أمرها، وكان سيدي محمد هذا ذا شدة وشكيمة على العصاة دوسري البطش حجاجي السيف، وكان قد اتخذ كلاباً ضخاماً تسميها العامة القناجر يوهم الناس أنه إذا عضب على أحد ألقاه إليها فتفترسه، وكان ربما جيء إليه بالجاني فيقوم إليه ويباشر ذبحه بيده حتى لقد حز أصبعه في ذبحه لبعض الجناة فقدم سيدي محمد هذا تامسنا وأوقع بأولاد حريز وقعة شنعاء، فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتي رقبة وهدم قصبة كريران الحريزي المسماة بمرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فذعروا واقشعرت جلودهم لهيبته، ثم زحف إلى دكالة ومعه بعض مساجين أهل تامسنا فلما وصل إلى شاطىء وادي آزمور أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض، ثم عبر الوادي ونزل بآزمور فازداد الناس رعباً منه وخشعت له قبائل دكالة بأسرها، ثم تقدم إلى الجديدة فاحتل بها وكانت يومئذ خربة لا زالت على الهيئة التي فتحت عليها أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم صورها بالمينى صار الناس يسمونها بالمهدومة فأمر سيدي محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ما تلثم منها وسماها

الجديدة، وتهدد من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ، وهو الذي بنى القبيبة الصغرى المقابلة لباب المسجد الجامع بها.

ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ما حدث في المغرب من الجوع الذي أهلك الناس وكاد يأتي عليهم بعثه إلى الصحراء لتدويخ أهلها وجباية زكواتها وأعشارها، فذهب إليها وعاد مخففاً فولاه السلطان على وجدة فأقام بها يسيراً ورجع بلا طائل.

شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله في غرس أجدال بحضرة مراكش

لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع في غرس آجدال غربي مراكش، وهو بستان عظيم جداً يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكرتها، وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الأشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك، وكل نوع منها يغل ألوفاً في السنة بحيث أن غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفاً وأكثر إذا كانت صالحة، وفي خلال هذه الجنات من قطع الأزهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية ما لا يأتي عليه الحصر حتى أن منها ما لا يعرفه جل أهل المغرب ولا رأوه قط لكونه جلب من أقطار أخرى، وفي وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الأنهار لسقي تلك الجنات وعليه من الأرحاء شيء كثير وتلك البرك منها ما ضلعها الواحد يكون مائتين خطوة وأقل وأكثر، وفي داخله أيضاً من المنتزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية ما يستوقف الطرف ويستغرق الوصف مثل دار الهناء، والدار البيضاء، والصالحة، والزاهرة وغير ذلك. ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله، والحاصل أن هذا البستان

جنة من جنان الدنيا يزري بشعب بوان وينسى ذكر غمدان إلى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التي أنشأتها هذه الدولة في إبان الإقبال والشبيبة.

ولما شرع السلطان رحمه الله في غرس هذا البستان جلب له العين الآتية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت وهي من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن، وكانت مسفيوة متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعمدون إليها بالليل فيفرقونها سواقي على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم إلى أن جاء السلطان المولى سليمان فأعياه أمرهم فيها فأقطعهم إياها على ألف مثقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمٰن انتزعها منهم رغماً عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربى حتى ألقت جرانها بأجدال السعيد، وعم نفعها وريها القريب منه والبعيد، وفي ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن إدريس رحمه الله:

وردت وكان لها السعود مواجها ... والحسن مقصوراً على مواجها

وبدت طلائع بشرها من قبلها ... كالشمس طالعة لدى أبراجها

وتسير ما بين الأباطح والربى ... ترمي فريد الدر من أمواجها

وتصوغ من صافي النضار سبائكا ... حلت بها الأعطاف من أثباجها

هبطت إليك من الجبال وطالما ... تعبت ملوك الأرض في إخراجها

وأتتك راغبة تجر ذيولها ... وتفيض غمر النيل من أفواجها

تنساب مثل الأفعوان وتنثني ... كالغصن بين وهادها وفجاجها

خطب الملوك نكاحها فتمنعت ... وأتتك واهبة حلال زواجها

فلتهنك الخود الرفيع فخارها ... وليهنها أن صرت من أزواجها

حراء عباسية بدوية ... نشرت ذوائبها على ديباجها

وافتك وافدة وقد صبغ الحيا ... وجناتها وجرى على أدراجها

فكأنها بلقيس جاءت صرحها ... لكنه صرح بغير زجاجها

عرفت أناملك الشريفة أبحراً ... غرقت بحار الأرض في عجاجها

فأتتك طالبة الأمان لنفسها لتنال بعض الطيب من ثجاجها
لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت مرهوبة تستن من إزعاجها
ونزعتها بالقهر من غصابها والسابقون رضوا ببعض خراجها

واعلم أن هذه الأخبار التي سردناها من أول هذه الدولة السعيدة إلى هنا تبعنا في جلها أبا عبد الله أكنسوس، وقد ساقها رحمه الله مجردة عن التاريخ الذي هو المقصود بالذات من الفن، ونحن لما لم نعثر في الوقت على ما يحقق لنا تواريخها رتبناها بحسب ما أدى إليه الفكر والروية، وأثبتناها لئلا تذهب فائدتها بالكلية، وعلى كل حال فهي في حدود الأربعين من مائة التاريخ والله أعلم.

ولاية القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجراري على وجدة وأعمالها

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله كان قد ولى ابن عمه سيدي محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل، وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومتاخمتها لمملكة الترك، فكانت ثغراً من الثغور، ولكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبياتهم في العرب والبربر، ففكر السلطان رحمه الله فيمن يكفيه هذا المهم ويسد له هذا المسد فوقع اختياره على القائد الأنجد أبي العلاء إدريس بن حمان بن العربي الوديي الجراري فرماها به وجعل أمرها إليه وعول في شأنها عليه، وكان هذا الرجل نسيج وحده وقريع دهره في جودة الرأي وإدارة الأمور على وجهها وإجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحه فولاه عليها في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، فقام بأمرها أحسن قيام، واستوفى جباية أهل المداشر منها والخيام، ثم حمله نصحه وصدق خدمته على أن يستأذن السلطان في أن يكون يكاتبه بجميع ما يحدث في تلك البلاد من الأمور الداخلة في الدولة

والخارجة عنها ليكون السلطان على بال من ذلك الثغر، فاستأذن في ذلك بواسطة الوزير أبي عبد اللّه بن إدريس فكان من جواب الوزير له أن قال حسبما وقفت عليه بخطه: إني أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كتبت في شأنه فأعجبه ذلك وقال: لا بأس به وليكن خفياً من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الأمور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصر في ذلك واجتهد في إصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمه أمان الطريق، وخمود الفتنة، حتى لا يصل من تلك الناحية إلا الخير فأنت من فضل الله ذو رأي وبصيرة بالأمور وخصوصاً تلك النواحي والله يوفقك ويسددك، وهذه النواحي بخير وعافية وفي نعم من الله وافية قد نزل فيها المطر الغزير وكثر الخصب وحرث الناس الحرث الكثير، وسيدنا بمكناسة الزيتون ولا ما يشوش البال غير أن والدته المقدسة صارت إلى عفو الله ورحمته وذلك قبل تاريخه بشهر ونحن على المحبة والسلام، في الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، محمد بن إدريس لطف الله به انتهى لفظ الكتاب المذكور.

وفي هذه المدة كان السلطان رحمه الله قد استعمل الشيخ أبا زيان بن الشاوي الأحلافي على تازا وأعمالها وأوصاه بالتعاون على أمر الخدمة السلطانية بالقائد إدريس فكانا في إدارة الأمور بتلك النواحي كفرسي رهان، ولكن التبريز إنما هو للقائد إدريس، ولما دخل رمضان من السنة المذكورة عزم السلطان رحمه الله على المسير إلى بلاد الشرق وجدة وأعمالها للوقوف على تلك التخوم بنفسه والنظر في أمورها برأيه إذ لم يكن وطَأَها قبل ذلك، فاستنفر القبائل لحضور عيد الفطر والنهوض إليها، ولما حضر العيد وفد على السلطان جماعة من بني يزناسن وعرب آنقاد فباحثهم رحمه الله عن حال بلادهم، فشكوا قلة الخصب فصده ذلك عن المسير إليهم ووعدهم بأنه سيطأ أرضهم من العام القابل في أول يناير، ثم صرف رحمه الله وجهته تلك إلى التطواف على مراسي المغرب والنظر في أمورها وإحياء مراسم الجهاد بها، فخرج من مكناسة منتصف شوال من السنة أعني سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، فمر بأرضات من أعمال وازان وصار إلى تطاوين ثم إلى طنجة ثم

آصيلا وزار وليها أبا عبد اللّه محمد بن مرزوق وتبرك به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الثغور ثغراً ثغراً إلى آسفي، وفي أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانتقاض الشراردة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وإفسادهم السابلة ونهبهم الرفاق، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون إلى جنات مراكش، فسدد السلطان رحمه الله قصده نحوهم وكان من أمره معهم ما نذكره.

فتح زاوية الشرادى والسبب الداعي إلى غزوها

قد قدمنا ما كان من أمر المهدي بن الشرادي الزراري مع السلطان المولى سليمان رحمه الله بما فيه كفاية، ثم لما بويع السلطان المولى عبد الرحمٰن بايعه المهدي في جملة الناس، ولما قدم السلطان مراكش قدمته الأولى لقيه الشراردة في خمسمائة فارس بمشرع ابن حمى مؤدين الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم، ولما عزموا على الرجوع كان في جملة ما قال لهم السلطان رحمه الله: « إن ما فات قد مات، وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر، ومن الآن من فعل شيئاً يخاف على نفسه». فرجع الشراردة إلى بلادهم وعيد السلطان بمراكش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشراردة في جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملاً من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف مثقال عيناً مما كانوا نهبوه من صاكة الصويرة قبيل وفاة السلطان المولى سليمان رحمه الله حسبما أشرنا إليه قبل، فكان من تمام إحسان السلطان إليهم وتألفه إياهم أن قال لهم: «افرضوا لي مائتي فارس منكم تذهب إلى درعة، وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم». ففعلوا، وكساهم السلطان وأنعم عليهم، ثم لما ولى أخاه المولى المأمون على مراكش مرضوا في طاعته ودعا المهدي تهوره إلى أن شكاه إلى السلطان وهو بمكناسة يومئذ، ويعتد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والأعشار على غير وجهها الشرعي، وأنه ولي عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد

كان يتولى عليهم، فأغضى السلطان عن ذلك وبالغ في الأنة القول له في كتابه ووعده بأنه إذا وصل إلى مراكش يشكيه من أخيه، وفي أثناء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان إليه أغرى إخوانه بالخروج عن طاعة السلطان، والاشتغال بما يسخط الله ويرضي الشيطان، فانبثت خيولهم في الطرقات ومخروها مخراً وانتسفوها نسفاً، وعمدوا إلى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن وانتهبوا دورهم، ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردين عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشراردة، وتكاثر عليه شذاذهم، فحينئذ استأنف السلطان جده وأرهف حده وكتب إلى أخيه المولى المأمون باستنفار قبائل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه، وسار السلطان في جيش العبيد والودايا وآيت أدراسن وزمور وعرب بني حسن وبني مالك وسفيان، وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم معدة حين يمر بهم، وكان المهدي قد عظم ناموسه وتمكن من جهلة قومه وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر، وكان السبب الأقوى في طغيانه وطغيان قومه ما اتفق له في هزيمة السلطان المولى سليمان رحمه الله فظن المهدي وشراردته أن لا غالب لهم من الله، ولما برز السلطان رحمه الله من رباط الفتح لقيه ركب الحجاج الذين انتهبهم هشتوكة والشياظمة الذين بأحواز آزمور، وكانت العادة يومئذ بالمغرب أن ركاب الحاج تأتي من آفاق المغرب فتجتمع بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة في ذلك الزمان، فلما وصل هؤلاء الحجاج من أهل السوس وغيرهم إلى الشياظمة وهشتوكة انتهبوهم وجردوهم من المخيط والمحيط، فسمع السلطان رحمه الله شكواهم وامتعض لانتهاك حرمتهم وزحف إلى هؤلاء المفسدين فأوقع بهم وقعة شنعاء بالموضع المعروف بفرقالة من أعمال آزمور حتى كانوا يلقون أنفسهم في البحر طلباً للنجاة بعد أن أثروا في المحلة أول النهار، ثم كانت الكرة عليهم وحكم السلطان السيف في رقابهم وامتلأت أيدي العسكر من أثاثهم وماشيتهم، وكانت هذه الوقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر، ثم عبر إلى آزمور ومنها إلى الجديدة، ثم سار مع الساحل

حتى وصل إلى آسفي فزار الشيخ أبا محمد صالح رضي الله عنه وعطف إلى الزاوية الشرادية فبغتها وطلعت عليها راياته المنصورة بالله مع الصباح ولم يعرج على مراكش وقبل نزول الجيش وضرب الأخبية أنشبت الحرب معهم فتقاتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف ودامت الحرب سبعة أيام، ونصب عليهم السلطان المدافع والمهاريس العظام، وفي اليوم الخامس من تلك الأيام كان عيد المولد الكريم يوم الأربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فأراد السلطان رحمه الله أن يعفي الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشراردة طغيانهم وبغيهم على أن تقدموا للجيش وأنشبوا الحرب فأمر السلطان بالزحف إليهم والنكاية فيهم، وكان المعلم الأكبر أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه ملاح السلاوي حاضراً في هذه الوقعة فتقدم إليه السلطان بالوصاة بالجد والاجتهاد في الرمي فرمى عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنبة كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر وكانوا هم أيضاً يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاريس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان، ثم لما كان عشي الجمعة السابع من أيام الحرب افترقت كلمتهم وعزم المهدي على الفرار فقال له أصحابه: كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت تعدنا؟! فقال لهم: أما أنتم فالذي أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستنكفوا منها، وأما أنا فالذي عندي وسمعته من آبائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا، في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهلة صدقه بعد أن أتلفوا عليه نفوسهم وأموالهم، ومن يضلل الله فما له من هاد، ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شرذمة من أصحابه نحو العشرين فارساً فشيعوه إلى الموضع المعروف بتيزكي فودعهم وذهب إلى السوس بعد أن سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملأ صحيفته من الآثام، نسأل الله العفو والعافية، ولما فر المهدي عنهم تفرقوا شذر مذر وباتوا يتحملون بنسائهم وأولادهم إلى منجاتهم والذين صعب عليهم الخروج

اجتمعوا وساروا إلى القواد الأربعة فسرحوهم ورغبوا إليهم في الوساطة عند السلطان فأصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون، فأذن لهم ودخلوا عليه وشفعوا فيمن بقي منهم وطلبوا الأمان فأمنهم، ثم تقدموا إلى السلطان فاستأذنوا فأذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى المأمون من الأمان فأمضاه لهم، ثم أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو الألفين وعاثت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم.

وقيل: إن السلطان رحمه الله لم يؤمنهم ولما قبض عليهم عزم على تحكيم السيف في رقابهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الإفتاء بإراقة الدم حتى أن منهم من أفتى وهو الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن المرابط المراكشي بأنهم تابوا قبل القدرة عليهم، فتوقف السلطان رحمه الله عن قتلهم، وكان وقافاً عند الحق دائراً مع الشرع حيث دار، ثم أمر رحمه الله بالاحتياط على عيال المهدي وأولاده فاحتيط عليهم فجيء بهم إليه وبعثهم إلى مكناسة فأنزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد البخاري الذي هلك في وقعة آعليل مع السلطان المولى سليمان، وأمر السلطان بسور القصبة فهدم إبراراً لقسمه وحيزت المدافع والمهاريس التي كانت منصوبة عليه، ولما انقضى أمر الحرب وتم الفتح هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنبة فقتلته وقتلت جماعة معه، فوقف السلطان عليه بنفسه حتى أقبر وأحسن إلى أولاده بعد ذلك. ورأيت بخط الوزير ابن إدريس في بعض مكاتيبه ما نصه: «واعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشرادية وأهلك أهلها الظالمين، ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل وربحت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والأنعام» اهـ.

ثم إن السلطان رحمه الله فرق مساجين الشراردة فسجن بعضهم برباط الفتح، وبعضهم بمكناسة، وبعضهم بفاس، ثم بعد مضي نحو السنة سرحهم ونقلهم إلى بسيط آزغار وجمع إخوانهم من القبائل فضمهم إليهم ولا زالوا

موطنين به إلى الآن، وأما المهدي فإنه ذهب إلى السوس وانتهى إلى آيت باعمران من ولتيتة فنزل على مرابطها أبي عبد اللّه محمد آعجلي الباعمراني واستمر عنده ثلاث سنين وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم بعث من شفع له عند أمير المؤمنين فقبل السلطان شفاعته وجاء المهدي في قيده إلى أن دخل على السلطان بمراكش وبكى أمامه وتضرع فسامحه السلطان، ثم بعثه إلى مكناسة فاجتمع بأولاده وبعد مدة يسيرة ولاه السلطان على إخوانه.

قال أكنسوس: عاملهم بالإساءة فعادت محبتهم له عداوة وضجوا إلى السلطان منه فعزله، ثم حج المهدي بإذن السلطان ورجع فولاه أيضاً فلم يقبلوه، ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الأحوال وتأخرت وفاته إلى أوائل شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في أول دولة سلطان العصر وإمام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضي الله عنه، ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر في ذلك فمنهم الفقيه الأديب أبو عبد اللّه أكنسوس قال:

بشائر لا تحيط بها الشروح ... كأن سميعها فنن مروح
سقى ربع البشير بها غمام ... يباكرها هتون أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو ... فتوح في مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغواني ... تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين ... ويسري في الجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر ... به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثار عصبته وأضحى ... لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض ... فساد به لنا الدين السميح
وزر على زرارة كل خزي ... تشق له المجاسد إذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار ... وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا ... فسحقاً حين تصرعه الجموح
أتيح لهم لحينهم جهول ... غوى للضلال له جنوح

يقودهم إلى العصيان سراً ويظهر أنه البر النصوح
يحدثهم إذا ما حم خطب حديثاً كان مصدره سطيح
هو الدجال في سمت وفعل فمن يدعوه مهدياً وقوح
فأهلكه الإمام فكان عيسى كذا الدجال يهلكه المسيح
فصير دار منعته فلاتاً على أطلالها البوم السنيح
وفر عن الذمار على حمار عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيالؤم الذليل فلا وهين فيعذر بالفرار ولا جريح
وخير من جباة في هوان يبوء به الفتى موت مريح
أيطمع في النجاة فلا نجاة سيدركه الهزيز المستبيح
إذا كان الشراب له بحاراً تخوض إليه سلهبة سبوح
ستدركه العزائم من إمام تدك له المعاقل والصروح
إمام قد أعاد لنا سروراً وجاد لنا به الزمن الشحيح
أعز الله ملك بني علي بصولته وتم له الوضوح
وجرد من جلالته حساماً يزيل به الضلالة أو يزيح
وقد كان الخلائق في ظلام فلاح على الخلائق منه بوح
وأصبحت الأباطح باسمات وكان على مناظرها كلوح
أعز معود للنصر ساع إلى العلياء مسعاه نجيح
يخاطر في منال العز دأباً برأي كل مدركه رجيح
فرايات السعود عليه نشر وساحات الفخار لديه جوح
أبا زيد فأنت لنا ملاذ وجاهك في المهم لنا فسيح
فقد زانت مآثرك الليالي ولاح لعدلك الوجه المليح
وهذا الدهر كالطوفان موجاً وطاعتك السفين وأنت نوح
وأنت خليفة الرحمٰن من لا تؤمنه فمشربه نشوح
كما أن الشبانة حين زاغت وهب لها من الطغيان ريح
عصفت عليهم باليأس تزجي كتائب كالسحاب إذا تلوح
فألقيت الجران على ذراهم بجيش كلهم بطل مشيح

فجاء العفو منك وهم ثلاث | أسير أو كسير أو ذبيح
وقد قسمت بلادهم بعدل | ودورهم كما قسم الوطيح
وقد نظمت مكايدهم قديماً | بني سعد وزيدان نطيح
فظنوا آل إسماعيل يرنو | لغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا بأنكم سيوف | لحدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد إذا تبقى عليهم | بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فإن الجرح يكوي | طرياً بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروساً | ومجدك من مفارقها يفوح

ومن ذلك قول بعضهم ولعله الفقيه أبو محمد عبد الله الديماني قال:

بشرى تقر بأعين الإيمان | كالوصل ينسخ دولة الهجران
جاد الزمان بها على مقداركم | فتقاصرت عنها خطا الأذهان
أين المفر لمن عنا عن أمركم | أترى البغاث تفوت ما لعقبان
الأمر أمر الله غير منازع | لاح الصباح لمن له عينان
يا من يطالب أمرهم بدلائل | أتطالب البرهان بالبرهان
إن كنت تجهل فالحسام معلم | يشفي البريء به ويشقي الجاني
كم من غوي قد عتا عن أمرهم | كزرارة فمضى إلى الخسران
أين المفر لمن عتا عن أمركم | يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
لم يمنع الأعداء منهم معقل | لو أنهم صعدوا إلى كيوان
لكنهم باؤوا بأخسر صفقة | فكأنهم غصبوا أبا غبشان
جيش تسد وفوده مسرى الصبا | وتهد وطأته ذرى ثهلان
يا مالكاً ملأ الوجود محاسناً | لا تختفي عن أعين العميان
أجريت بين المعتقين مكارماً | يسلو الغريب بها عن الأوطان
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف | إلا بفضل نداكم الهتان
إنسان عين الدهر أنت وإنما | تكميل شكل العين بالإنسان
ذكراك بالأفواه تعذب كاللما | وتخف كالبشرى على الآذان
أيقظت جفن الحق من إغفائه | وأقمت ميلة عطفه الكسلان

ألقى لك الزمن العصى زمامه   وعنا لطاعة أمرك الثقلان
فالدهر دونك دافع ومدافع   وصروفه لكم من العبدان
فإذا أشرتم في الزمان لمقصد   كان القضاء لكم من الأعوان
أخلصت للرحمن في طاعاته   فلذا دعيت بعابد الرحمٰن
ألقيت رحلي في ذراك مخيماً   فجريت في الآمال طوع عنان
وتركت أوطاني وجئت وإنما   من فرط حبك غبت عن أوطاني
يا ليت قومي يعلمون بأنني   من جودكم أرد الفرات الثاني
لا زلتم في أسعد مبسوطة   مقبوضة عنها يد الحدثان

واستمر السلطان مقيماً بمراكش مدة طويلة وبعث أخاه المولى المأمون بن هشام لقطر السوس فجباه.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ففي شعبان منها عقد السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له: استرياك وهي اثنا عشر شرطاً مضمنها المخالطة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الأمان والاحترام من الجانبين والآخر منها مضمنه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان، ثم حدثت الفتنة عقب هذا بيسير على ما نذكره.

هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد طاف في آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف على ثغور المغرب ومراسيه وأنه أراد إحياء سنة الجهاد في البحر التي كان أغفلها السلطان المولى سليمان رحمه الله، وأمر أعني المولى عبد الرحمٰن بإنشاء أساطيل تضم إلى ما كان قد بقي من آثار جده سيدي محمد بن عبد اللّه وأذن لرؤساء البحار من أهل العدوتين

سلا ورباط الفتح أن يخرجوا في القراصين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وما جاورها، فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمٰن باركاش والحاج عبد الرحمٰن بريطل، فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمة إذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط المعهودة عندهم، وعثروا فيها على شيء كثير من الزيت وغيرها، وكان بعضها قد جيء به إلى مرسى العدوتين وبعضها إلى مرسى العرائش، فهجم النابريال على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف، ورمى عليها من الكور شيئاً كثيراً من الضحى إلى الاصفرار، وعمد في أثناء ذلك إلى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا إلى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصرة وتقدموا صفوفاً قد انتشب بعضهم في بعض بمخاطيف من حديد لئلا يفروا ومشوا إلى مراكب السلطان التي كانت مرساة بداخل الوادي وهم يقرعون طنابيرهم ويصفرون ومراكبهم التي في البحر ترمي بالضوبلي مع امتداد الوادي لتمنع من يريد العبور إليهم فانتهوا إلى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثأرهم فيما انتزع منهم فلم يكن إلا كلاّ ولا حتى انثال عليهم المسلمون من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر إليهم أهل العرائش وأحوازها سبحاً في الوادي وعلى ظهر الفلك إلى أن خالطوهم وفتكوا فيهم فتكة بكراً، وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع في الفدن فشهدوا الوقعة وأبلوا بلاء حسناً حتى كانوا يحتزون رؤوس النابريال بمناجلهم، وقد ذكر منويل هذه الوقعة وبسطها وقال: إن النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الأسرى وتركوا مدفعاً واحداً وشيئاً كثيراً من العدة وأفلت الباقي منهم إلى مراكبهم وذهبوا يلتفتون وراءهم.

واعلم أن هذه الوقعة هي التي كانت سبباً في إعراض السلطان المولى عبد الرحمٰن عن الغزو في البحر والاعتناء بشأنه، فإنه رحمه الله لما أراد إحياء هذه السنة صادف إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم

البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الأجناس الموالية لها حتى كاد عقد المهادنة ينفصم، وأكد ذلك اتفاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمه الله وأعمل فكره ورويته فظهر له التوقف عن أمر البحر رعياً للمصلحة الوقتية ولقلة المنفعة العائدة من غزو المراكب الإسلامية، وانضم إلى ذلك إعلان الدول الكبار من الفرنج مثل النجليز والفرنسيس بأن لا تكون المراكب إلا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التي يستقيم بها أمره وتحمد معها العاقبة وتدوم بحفظها المودة على مقتضى الشروط، ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها إليها وتجارتها فيها أي دولة كانت، ومن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنتينات وما يترتب عليها إلى غير ذلك مما فيه هوس كبير، فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضي إلى ذلك وتأكد لديه إهماله لتوفر هذه الأسباب، ولعمري أن تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها، وما يعقلها إلا العالمون، وأما فتنة النابريال هذه فإنها تفاصلت بواسطة النجليز حيث وجه باشدوره مع باشدور النابريال فقدما على السلطان رحمه الله مكناسة في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين ومائتين وألف.

استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن أتراك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفي نقيض قد تعددت بينهم الوقعات برّاً وبحراً وكثرت بينهم الذحول والترات، وكان الترك يؤذونهم أشد الإذاية وأمير

الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية، وربما شكا طاغية الفرنسيس إلى السلطان محمود العثماني فقال له: شأنك وإياه فهجم الفرنسيس في العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومجاولات في التاريخ المتقدم، وكان السلطان المولى عبد الرحمٰن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض إلى مكناسة في التاريخ المذكور، ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا في بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله فجاؤوا إلى عامله بوجدة القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجواري وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم، ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيداً للطلب واستعجالاً لحصول هذا الأرب، فقدموا على السلطان بمكناسة غرة ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأجل مقدمهم، ولما صرحوا له عن مرادهم توقف في ذلك رحمه الله وكان هواه إلى قبولهم أميل إلا أنه أراد أن يبني ذلك على صريح الشرع كما هي عادته فاستفتى علماء فاس فأفتى جلهم بنقيض المقصود ورخص له بعضهم في ذلك، فأخذ السلطان رحمه الله بقول المرخص، مع أن أهل تلمسان لما بلغهم فتوى أهل فاس كتبوا إلى السلطان في الرد عليهم ما نصه:

ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه، ومحل الفخر ومحرزه، أساس الشرف الباذخ ومنبعه، وبساط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأمجد الأفخم، نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمٰن بن هشام أبقى الله سيدنا للمسلمين ذخراً، ومنحه مودة وأجراً، أن فتوى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس، لأنهم اعتقدوا أن في عنقنا للإمام العثماني بيعة، وهذا لو صح لكان علينا حجة، وليس الأمر كذلك وإنما له مجرد الاسم هنالك، وعامل الجزائر إنما كان متغلباً، وبالدين متلاعباً، فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه، إن الله يمهل على الظالم حتى يأخذه

فإذا أخذه لم يفلته، ويدل على تغلبه واستقلاله، عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتثاله، بل لا يكترث به أصلاً، ولا يتبع له قولاً ولا فعلاً، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحاً فلم يقبل له قولاً ولا نصحاً، وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارى من الأهوال، فامتنع غاية الامتناع، ولم يمكنه من شبر منها فضلاً عن الباع، حتى أخذها العدو الكافر، وهذا جزاء كل فاسق فاجر، مال جمع من حرام، سلط الله عليه الأعداء اللئام، وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان، مستغن عن إقامة الدليل والبرهان، الناس كلهم عبيد الله وإماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاءً وامتحاناً، فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى، وإن قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجاسر على الله في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه، هذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني في عنقنا بيعة، فلا تكون علينا حجة، لأنه تباعد علينا قطره، فلم يغن عنا شيئاً ملكه، لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار، والقرى والمدن والأمصار، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار، على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره، عاجز عن الدفع عن إيالته القريبة من محله حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين، وأعطى فيه منهم ضامناً، ليكون في المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمناً، فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا، وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحي الشام، فقد استولى عليها أعداء الدين، مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعاً ولا ملك عنهم دفعاً حتى استعان بالعدو الكافر، والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، هذا ونص الأبي في شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم، على أن الإمام إذا لم ينفذ في ناحية أمره جاز إقامة غيره فيها ونصره، فانتظار نصرته يؤدي إلى الهلاك، كيف وقد تطاولت

إليها الأعناق، وتشوفت إليها من كل جانب العيون والأحداق، فأعرضنا عن الكل صفحاً، وطوينا عنه الجوانب كشحاً، مقبلين إلى عتبة باب سيدنا نصره الله وسدته، داخلين تحت طاعته، ملتزمين لخدمته متوافقين مع القبائل والأمصار وأهل الرأي والاستبصار، لعلمنا أن سيدنا نصره الله المتأهل في هذا الأمر العريق، الجدير بالإمامة الحقيق، كيف وقد ورثها كابراً عن كابر وإليهم انتهت المآثر والمفاخر، فنطلب من سيدنا نصره الله أن يلتزم لنا بفضله من هذه البيعة القبول، مستشفعين بجاه جده الرسول، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته المنتخبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اهـ.

ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمها وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأضاف إليه كتيبة من الجند من أعيان الودايا والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد إكرامهم وتمام الإحسان إليهم، وكتب إلى عامله القائد إدريس يستوصيه بالجميع خيراً ويكون بصيرة عليهم وأشركه في النظر والرأي مع المولى علي بل الاعتماد في الحقيقة إنما كان عليه، وقد وقفت على كتاب الوزير أبي عبد اللّه بن إدريس بخط يده للقائد المذكور في هذه القضية يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله محبنا وخال سيدنا الأرضى السيد إدريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد، فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفنا معهم كل الوقوف وبذلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابلهم بالإحسان والإكرام كما هو شأنه ذهاباً وإياباً، وهاهم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي علياً للخلافة عليهم لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته، وأنه ذو نفس أبية لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتصف بهذه الأوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه، وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك، وإياك والطمع، وازهدوا فيما في أيدي

الناس وكل ما تحتاجون إليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلكم، ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة، واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه في الترقي فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين، وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجاناً وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة، غايته أنهم نالوا من العناية فوق الظن، ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية، ولم يبق إلا ما عندك فكن عند الظن بك فإن سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه، وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص، وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي، وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف مقنع وعلى المحبة والسلام، في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف، محمد بن إدريس لطف الله به اهـ نص الكتاب بحروفه.

ولما وصل المولى عليّ إلى تلمسان وجه السلطان في أثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أبي جميعة وكان من النجباء، ثم لما دخل المولى علي تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واغتبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد إدريس، وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا إدالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى علي وقاتلهم مدة إلى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم، وانحرف عنه أيضاً قبيلتا الدوائر والزمالة من عرب تلك الناحية، ويقال إن أصلهم من جند كان للمولى إسماعيل رحمه الله بعثه إدالة بتلك الناحية واستمروا هنالك وتناسلوا إلى هذا التاريخ فأظفر الله المولى علياً بهم وانتهب الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم، ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

وفي أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد إدريس من تلمسان في جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدويخ القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسكر والحشم والمشاشيل منهم وبنو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء، ونص بيعتهم: الحمد لله الذي أنار الخلافة وجه الزمان، وأطلع في صحيفة غرته طوالع السعد واليمن والأمان، وهدى من ارتضاه من الأنام للدخول تحت ظل راية مولانا الإمام والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد، فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبي الحسن علي ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه في عليين جميع القبائل المسطرة يمنته وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذي اللواء المنشور والسيف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمٰن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه، بمحضر خليفته الطالب الأرشد الماجد الأسعد القائد السيد إدريس الجواري وتلقوه بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم، أشهدوا على أنفسهم أنهم عقدوا البيعة لمولانا الإمام أيده الله وأدام عزه وعلاه، والتزموها بالسمع والطاعة وفي جيدهم انتظموها، بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها، وأوجب العمل بمقتضاها، فمن سمع ما ذكر ممن ذكر قيده في مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين وألف وبعده علامة العدلين المتلقيين من رؤساء القبائل المذكورة، فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد إدريس المذكور لأخذ البيعة عليهم كما قلنا.

والحاصل أن السلطان رحمه الله كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود في إمدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد أخرى، وبعث الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني إلى أهل تلك البلاد يدعوهم إلى الطاعة، ويحضهم على الدخول في أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفي سلفه اعتقاد كبير، وبعث الشريف الأخير أبا محمد عبد

السلام البوعناني فولاه خطة الحسبة بتلمسان وبعث من الكسي والرايات والأعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئاً كثيراً لكن لم يكن إلا ما أراده الله تعالى فافترقت كلمة العرب الذين هنالك لضعف إيمانهم وقلة همتهم فجلهم مال إلى الدخول في حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران في هذه الأيام، ثم سرى ذلك الاختلاف في قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثر القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاعدهم عليه، ثم بانتهاب مال الزمالة والدوائر وماشيتهم في جوار الشريف سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني وفسد العمل وخاب الأمل، فحينئذ رأى السلطان رحمه الله استرجاع تلك الجيوش التي لم يبق طمع في صلاحها بعد أن أمر بالقبض على القائد إدريس لكونه سعى به عنده وأنه شارك في نهب الكرغلية والزمالة والدوائر وتقاعد على النفيس من أثاثهم فرجعت الحلة، وكان رجوعها في آخر رمضان من السنة المذكورة، وفي هذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها سافلها وهلك أهلها، والأمر لله كيف شاء فعل.

خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمٰن والسبب في ذلك

كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفري الحساني، والحاج محمد بن الطاهر الغفري العقيلي، والحاج محمد بن فرحون الجراري كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه، وكان السلطان رحمه الله يبعثهم في المهمات، ويستكفي بهم في الأقطار النائية والجهات، وكانوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم في الباطن منحرفون عنه بسبب أن الدالة التي كانوا يدلون بها على السلطان المولى

سليمان رحمه الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمٰن وزالت من أيديهم فكانوا يمرضون في الطاعة بعض الأحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عرهم إلى أن كان البعث إلى تلمسان فوجههم إليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه، فكانت قوارصهم لا تنقطع عن الدولة، وشغبهم لا يفتر من التطاول والصولة، ثم كان نهب الزمالة والدوائر فأبدؤوا في ذلك وأعادوا وشايعهم على فعلهم القائد أحمد بن المحجوب البخاري وأظهروا عدم المبالاة بالسلطان وخليفته وعامله وكانت بينهم وبين القائد إدريس الجراري منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسدوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهب معهم، وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد إدريس بوجدة وجيء به إلى تازا فسجن بها، ولما وصل جيش تلمسان إلى عنق الجمل قرب فاس خرج إليهم القائد الطيب الوديني البخاري وكان والياً على فاس فقيل أراد أن يقبض عليهم بإذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرحلهم وحقائبهم التي ملؤوها من النهب وكان الودايا والعبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يداً واحداً على من أرادهم بسوء كائناً من كان، فلما خرج إليهم الطيب الوديني تجهموه وهموا به فرجع أدراجه وأنهى ذلك إلى السلطان فأغضى عنهم، ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلي فأحس هو بذلك فذهب إلى الطاهر بن مسعود وتطارح عليه وقال له: إني مقبوض لا محالة فإن ولاك السلطان من أمري شيئاً فأحسن ولا تؤاخذني بما كان مني إليك، وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملاً بتارودانت فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء إليه فلهذا قال له ما قال، فقال الطاهر بن مسعود: وأنت مقبوض قال نعم، قال: عليّ وعليّ لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حياً، ثم إن السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد بن المحجوب فقرعهما وأمر بالقبض عليهما فقبض أعوان الودايا على أخيهم وقبض أعوان العبيد على أخيهم وخرجوا بهما إلى السجن مع العشي، وكان الطاهر بن مسعود قد

ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر ليفتكه وصاحبه، فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود إلى الأعوان فراودهم على إطلاق المسجونين فأبوا وقالوا: إنهما مسجونان عن أمر السلطان فتصامم عن ذلك واستل خنجره وضرب إدريس البواب الوديي على ترقوته فخدشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتكاك أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره. وقال: لا أخالف أمر السلطان، وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحلفهم السابق فخذل الله فيما بينهم، ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر إلى فرسيهما فركباهما ونجوا إلى ناحية دار الدبيبغ وثارت المغافرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص، وقامت شيعة السلطان لمدافعتهم فكثرهم الودايا وهزموهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور، وسأل السلطان عن الهيعة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له: يا مولانا إن هؤلاء ما جسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزموا على ما هو أكثر، فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب البجاة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلاً ورجلاً، ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا بقضهم وقضيضهم من فاس الجديد ومن قصبة شراقة فأدركوا السلطان عند قنطرة عياد فنزلوا إلى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له ويتبرؤون من فعل أولئك السفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أو كادت تغرب، فساعدهم رحمه الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بأن يذهب معه إلى قصبة شراقة وكانت يومئذ لأهل السوس فذهب معه إلى داره من غير أن يطمئن إليه، ولكن ذلك الذي اقتضاه الحال في تلك الساعة، ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغافرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغافرة الأدب بل عزموا على الفتك به ولكن الله تعالى وقاه شرهم، فاختلفت كلمتهم وتذامر أهل السوس فيما بينهم وقالوا: لا يبيتن السلطان الليلة إلا بداره واستنهضوه فنهض رحمه الله وركب فرسه وصحبوه إلى داره في ذلك الليل فاستقر بها، وبعد ذلك بأيام انتقل السلطان إلى بستان أبي الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحاز

شيعة السلطان إليه من العبيد وغيرهم ونزل جلهم بفاس القديم وبقي الودايا وحدهم بفاس الجديد، ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنه إن خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقام وتنصلوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم إلى العبيد فأنشبوا معهم الحرب وهلك من الفريقين عدد، ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطف وطيب أنفسهم وأجمع على الخروج إلى مكناسة فخرج بثقله وأثاثه وأمواله وسلك طريق قبقب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافرة من أعيان الودايا ثم أنهم ندموا ونكسوا على رؤوسهم وربما سمعوا من العبيد بعض كلام فحميت أنوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهب الودايا خيرته وأثاثه، وقام عقالهم دون العيال حتى ردوه إلى الدار محفوظاً مصوناً ولم يفعلوا أحسن منها، وأما المال والأثاث فقد أتى عليه النهب وكان شيئاً كثيراً، وتقدم السلطان رحمه الله لطيته وتبعه سفيه من سفهاء الودايا كان أراد الفتك فيه فحماه الله منه، ووصل السلطان رحمه الله إلى مكناسة فاستقر بها، واتصل خبر هذه الفتنة بالقائد إدريس بن حمان الجراري وهو مسجون بتازا فاحتال على سراح نفسه بأن افتعل كتاباً على لسان السلطان وبعث به إلى عامل تازا فسرحه، وكان السلطان رحمه الله قد بعث إلى القائد إدريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات مختوماً عليها بالخاتم السلطاني الكبير وأمره السلطان رحمه الله أن يحتفظ بتلك الورقات ولا يستعمل واحدة منهن إلا في أهم المهمات مما يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا تمكن مشاورته فيه لبعد المسافة بين فاس وتلمسان، فعمد القائد إدريس إلى واحدة من تلك الورقات فكتب فيها بتسريحه فسرح وجاء يجد السير إلى فاس، وبنفس وصوله كتب إلى السلطان يعلمه بما صنع، وأنه لا زال على ما يعهد مولانا من بذل النصح والسعي في صلاح السلطان والجيش، فأجابه السلطان رحمه الله بما نصه:

وبعد، فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك، وما

وجهنا لك إلا بقصد أن نسرحك لأننا تحققنا أنك كنت مغلوباً عليك فلا عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعتهم من ذلك لتفاقم الأمر هنالك وأنت عليك الأمان ظاهراً وباطناً في الحال والاستقبال، فلا تخش من شيء أبداً فإنك ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق، وقد عاينت وسمعت ما صدر من إخواننا من النزعة الشيطانية ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وإن قابلناهم به لا نلتقي أبداً، وأنت اسع في الخير والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالأمن من كل ما يخافونه من جانبنا، فجسارتهم أولى من صلاح القبائل فقف على ساق الجد **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس»** والسلام، في السابع عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب الشريف.

ثم إن القائد إدريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وتقدم القائد إدريس إلى أمين الصائر من قبل وقال له: ما كنت تدفع إلى دار السلطان كل يوم من دقيق ولحم وإدام وغير ذلك فاكتب لي بقدره وابعث إليّ به، فأحصاه الأمين المذكور وبعث إليه به فصار يبعث بذلك القدر إلى دار السلطان كل يوم، وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان القائد إدريس يحمل قرب الماء إليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء إلى مجراه، ثم إن السلطان رحمه الله استنفر قبائل الغرب كلها حوزاً وغرباً وثغوراً فقدموا مكناسة على بكرة أبيهم وسمع الودايا بذلك فاستدعوا الشريف سيدي محمد بن الطيب من بعض الأعمال والتفوا عليه وبايعوه، فحينئذ تبرأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاوريهم لأن سيدي محمد بن الطيب كانت قبائل المغرب قد تناذرته منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله بأهلها الأفاعيل فكان مبغضاً عند العامة، وزحف السلطان إلى فاس الجديد فحاصرهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن بستيون أبي الجلود وبستيون

باب الجيسة وبستيون باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوماً والحرب لا تنقطع في كل وقت، وكان الودايا يرمون أيضاً بالكور والبنب وأبلى بنو حسن في تلك الأيام البلاء الحسن، ثم إن السلطان عزم على البناء عليهم وجلب اللواحين فشرعوا في العمل وسئم الودايا الحرب وملوها فأذعنوا إلى الصلح وسعى في الوساطة بينهم وبين السلطان الأمين الحاج الطالب ابن جلون الفاسي، فأمنهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد فأذعنوا ثم بعثوا شفاعاتهم بالمشايخ والصبيان والألواح على رؤوسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح رحمه الله الجميع وقال لهم في جملة ما قال: الحمد لله إذ لم أغلبكم ولم تغلبوني لأني لو غلبتكم لذبحت هذه الجيوش أولادكم ولم أقدر أن أردها عنكم، ولو غلبتموني لفعلتم كل ما تقدرون عليه. فهذا من لطف الله بي وبكم.

قلت: وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفقته ورحمته، ثم لما عزم السلطان على النهوض إلى مكناسة ولى على جيش الودايا كله القائد إدريس بن حمان الجراري وذلك في الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، ثم نهض إلى مكناسة فاحتل بها، ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكناسة واستقامت الأحوال وكتب رحمه الله إلى القائد إدريس أن يحضر العيد في جماعة وافرة من إخوانه نحو الخمسمائة فحضروا ودخلوا على السلطان ذات عشية بالمشور فوبخهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرحهم فعادوا إلى فاس الجديد، ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض إلى مراكش قدم أولاً فاساً ونزل خارج البلد ونظر في شأنه وشأن الجيش والرعية، ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب إلى القائد إدريس يأمره أن يبعث إليه بالطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر يذهبان معه إلى مراكش بقصد الخدمة بها مع ولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فذهبا على فرسيهما مسرحين إلا أنهما كانا حذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذي كان سبب هذه الفتنة العظيمة فقدما مراكش وترتبا في

الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره الفقيه أبا عبد الله محمد بن إدريس وامتحنه، وبقي عاطلاً مدة ثم رده إلى خطته، وكان السلطان في مدة تأخيره إياه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الأديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعي فقام بأعباء الخطة وبرز فيها رحمه الله، وفيها بنى السلطان رحمه الله المارستان الكبير على ضريح ولي الله تعالى أبي العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولي المذكور القبة والمسجد فقط، فأدار السلطان رحمه الله على ذلك كله مارستانا كبيراً وبنى به مسجداً آخر وبيوتاً للمرضى تنيف على العشرين وأجرى إليه الماء وجعل ميضأة بإزاء المسجد للرجال وأخرى شرقيها للنساء، فجاء ذلك من أحسن الأعمال وكتب الله أجره في صحيفة السلطان.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، ففي صفر منها ورد على القائد إدريس كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث إليه بالحاج محمد بن فرحون الجراري فوصل إليه مسرحاً فقبض عليه وبعثه إلى الصويرة، وبإثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند ولده سيدي محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود، والحاج محمد بن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن ضلالهما وشيطنتهما حتى أنهما عزما على اغتياله بمصلى عيد الأضحى من السنة الفارطة فحماه الله منهما، ولما وصل السلطان إلى مراكش صار يكتب إلى القائد إدريس برؤوس الفتنة والقبض عليهم واحداً بعد واحد إلى أن استوفى جلهم، وكان القائد إدريس في هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زال متغيراً على الوداايا فألح عليه في البحث والاستكشاف عما هو مضمره لهم وما يريد بهم وما الذي يجلب رضاه عنهم ويصفي باطنه عليهم، فكتب إليه السلطان رحمه الله كتاباً أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه: خالنا الأرضى القائد إدريس الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد، فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا

ونطالعك بغاية قصدنا وأمنيتنا في الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيبك عن ذلك جواباً إقناعياً لعدم وثوقنا وقتئذ بصدق لهجتك، وكان يخيل لنا أنك تباحثنا على جهة الاطلاع على خبيئة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه من الصدق ووفور المحبة وخلوص النية حتى صرت به كأحد أولادنا.

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

وعليه فأنت أولى من نبثه سرنا ولا ندخر عنه شيئاً من دخيلة أمرنا، فاعلم أرشدك الله أن من بارزنا بالسوء قولاً وفعلاً من ذلك الجيش هم المغافرة كافة واستوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم قويهم وضعيفهم، ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الودايا وأهل السوس وخلوا بينهم وبين هواهم لكان ما أرادوه من تلف مهجتنا ولكن الله سلم، ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعاً وطبعاً ولسالف خدمتهم وكظم الغيظ المرغب فيه ارتكبنا في جانبهم أخف ما أوجبه الله تعالى على أمثالهم، قال جل علاه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33] الآية، وقد آليت على نفسي وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمني سور فاس الجديد والمغافرة به فهذا هو محض الصدق والآن بين لنا كيف يكون العمل في ذلك وما نقدم وما نؤخر لأن المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة للجيش، وهل تفشي هذا أو تكتمه؟ وعلى تقدير امتثالهم عين لنا أي محل ينتقلون إليه من ثغور إيالتنا كالرباط وغيره أو قصبة مراكش فإن النفس لم تسمح بهم بالكلية بل المراد زجرهم وإقامة بعض حق الله فيهم، ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبر قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وما ذكرت من أنّا عاهدناك ووعدناك بالإحسان والتنويه بشأنك فإنه وعد صدق لا مرية فيه إن شاء الله، وكيف وقد استوجبت منا كل جميل وقدمك لمعالي الأمور عقلك وصدقك، ولو ألفينا في الجيش مثلك لضممنا عليه البراجم والرواجب وفعلنا في جانبه ما هو الواجب، وقد اقتصرت حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيدي الكبير رحمهما الله، فأنت

عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التي اتخذت عندنا أعظم مما اتخذ هو عند سيدي الكبير قدس الله سره، فقد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته في هذه المرتبة وفقته بما هو أعظم وهو إحسانك لعيالنا وأولادنا ولولا أنت لهلكوا جوعاً فلا يكفر هذه الضيعة إلا ليئم، وحاشانا الله من ذلك فطب نفساً وقر عيناً فلك عندنا من المكانة والحظوة ما لو اطلعت على حقيقته لطربت سروراً ونشاطاً، وسترى إذا انجلى الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون إحسانك إليهم بحضرتنا، ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا، وفي الحديث ما معناه أن امرأة من بني اسرائيل أبصرت كلباً يلعق الحمئة من شدة العطش فسقته فغفر الله لها، فكيف بمن أسدى معروفاً لجماعة انقطع رجاؤهم إلا من الله، والله لن يخزيك الله أبداً والسلام، في ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف اهـ .نص الكتاب، ثم إن الله تعالى هيأ للسلطان أمره في الودايا وألهمه رشده فيهم فأمر أولاً بنقل رحى المغافرة إلى قصبة الشرادي من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لأنه رحمه الله لم يكن يظهر إلا أنه يريد نقل المغافرة فقط، ثم نقل رحى الودايا إلى العرائش وأحوازها ثم ردهم إلى جبل سلفات، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحى أهل السوس إلى رباط الفتح فأنزل حلتهم بالمنصورية على شاطئ وادي النفيفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح، ثم رد الحلة بعد مضي ست سنين إلى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية فأمر السلطان بعد سنتين أو ثلاث بترميمها وإصلاحها، وكان رحمه الله قد أسقط هذا الجند الوديي من الجندية وأعرض عنه بالكلية سنين ثم استردهم في حدود الستين كما سيأتي، ولما أخلى السلطان فاساً الجديد من جيش الودايا بأسره وكان بمراكش بعث بالطاهر بن مسعود، وبالحاج محمد بن الطاهر، فسجنا به مدة، ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زويدة بكتاب من عند السلطان على ولده سيدي محمد بفاس يتضمن الأمر بقتل الطاهر وابن الطاهر بالمحل الذي افتك فيه الأول الثاني، فأخرجا إلى المحل المذكور وحضر

الوصيف القائد فرجى وقدم الطاهر بن مسعود فأخرجت فيه عمارة وحز رأسه ،ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال: إنه زهقت نفسه قبل القتل لأنه لم يسل منه دم، وأما الطاهر بن مسعود فسال منه دم كثير وأمر سيدي محمد ولد السلطان بمواراته فووري، وأما ابن الطاهر فإنه رمي على المزبلة ووكل به الحرس إلى أن أكلته الكلاب ولم يبق إلا رجلاه بالقيد، وكان ذلك في حدود خمسين ومائتين وألف، وأما ابن فرحون وأصحابه فإنهم استمروا في سجن الجزيرة إلى أن هلكوا.

واعلم أن هذه الوقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفور حلمه وفضله حتى أنه ما عامل هؤلاء القوم الذين آذوه أشد الإذاية إلا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا والمسلمين برحمته، ويقينا وإياهم مصارع السوء وينيلنا الأمن في الدنيا والفوز في الآخرة بجنته، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

ظهور الحاج عبد القادر بن محيي الدين المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره

لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى علي بن سليمان حسبما مر بقي أهل تلمسان فوضى، ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية جذعة وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل، وكان الفقيه المرابط محيي الدين عبد القادر المختاري نسبة إلى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلاً وسط حلة الحشم عند المشاشيل منهم وكان متظاهراً بالخير وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه، فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم، فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيي الدين المذكور فذهبوا إليه

وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجافى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ وذهب منه الأطيبان وإنما هو هامة اليوم أو غد، فسدكوا به وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محيي الدين، وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وإنما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحباً عليه، ومشيراً بما تدعو الضرورة إليه، ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف إلى وهران وكانت يومئذ في ملكة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء، قتل فيها وأسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفراً منصوراً، فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكراً من الحشم وبني عامر لا بأس به، ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمٰن صاحب مراكش وفاس وأنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته، فأجابهم الحاج عبد القادر إلى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمٰن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها، وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبا عبد الله محمد البوحميدي الولهاصي، وكتب إلى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الإيالة التلمسانية، ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر الذين قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب، منها أنهم كانوا معادين للحشم ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا إلى وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة.

حدثني الأمين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزيني التطاوني قال: ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال: وكنت يومئذ في سن

الشباب حين بقل عذاري فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين إذ ذاك مهادناً لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر قنصله وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة، فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتي الزمالة والدوائر من إيالة الحاج عبد القادر وهم نحو الألفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا سنجقة وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه، فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر المعسكري كتاباً إلى الفرنسيس يقول فيه: «إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن إيالتي وعليه فلا بد أن تردهم عليّ وإلا فالحرب بيني وبينك» فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما إلى الآخر تجاره الذين في أرضه وأن من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر، واتفقوا أيضاً على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل إلى مأمنه.

ولما انقضى الأجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد، ولما كان عشي النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وباروداً كثيراً وإذا بالحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضاً وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم أيضاً ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم، فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح، واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث، وكانت فتكة بكراً. قال الحاج عبد الكريم المذكور: وكنت في تلك المدة مساكناً لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة، فلما انقضت الوقعة بيوم أو يومين سألته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الوقعة؟ قال: أقرب لك أم

أبعد؟ قلت: بل أقرب. قال: أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الوقعة ثمانية عشر عسكرياً انتهى كلام هذا المخبر.

ثم إن الزمالة والدوائر لجوا في موالاة الفرنسيس وأحكموا أمرهم معه وولوا عليهم رجلاً منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيس بلاد المغرب الأوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده إلى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته، ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين، وحماية بيضة المسلمين، أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له، فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة على يد الأمين الحاج الطالب بن جلون الفاسي وغيره، وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيس واستولى الفرنسيس في بعض الكرات على تلمسان وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها ثم استردها الفرنسيس بعد معارك شديدة ومواقف صعبة إلا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيس كان مقصوراً على قتل النفوس واستلاب الأموال، وأما الفرنسيس فكان ضرره بالمسلمين عائداً على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها، ودام ذلك مدة من ست عشرة سنة.

وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولولا أنه انعكس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيس والله غالب على أمره.

وفي سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي. أخبرتني والدتي الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي الجباري أني ولدت بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة

المذكورة. وفي محرم فاتح سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف توفي الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعي بمراكش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن علي الحاجي النكنافي مدة يسيرة ثم أخره ورد وزيره الأقدم أبا عبد اللّه محمد بن إدريس رحم الله الجميع. وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقيء وغور العينين وبرودة الأطراف.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محيي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه:

«الحمد لله سادتنا الأعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الإدريسية، ومرمى المطالب ومحط الرحال العيسية، أطباء أدواء الدين ومحققين حقه ومبطلين باطله، ومنتجين قضاياه المتخيلة عقيمة وباطلة، جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب، واشتد به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لغربال الكفار جزائر، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل إليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم، ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالؤون على الجحود والإنكار فإذا طلبوا بتعيينه جعجعوا والحال أنهم يعلمون منهم الأعين والآثار، فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم؟ فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم؟ وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والأولاد، إذا استنفره نائب الإمام للدفاع والجلاد؟ فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟ كيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها من التحقق بعمارة ذمته في الحال؟ فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال وما يجمع من الزكاة لا يفي بشبعهم فضلاً

عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ومؤنتهم وزيهم؟ فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين؟ وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الأغنياء لجفوة الأعراب وجهلهم؟ وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟ أجيبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال مما لم يحضرنا داووا عللنا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الأمور الذرع، وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الأسباب أن يتخلى عن الأمر ويطرح ثوب الإمارة والدرع، مأجورين والسلام، في تاسع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة صدره عن إذن الحاج عبد القادر بن محيي الدين لطف الله به».

وقد أجاب عن هذا السؤال بإشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي بجواب طويل يشتمل على خمس كراريس وزيادة، وهو موجود بأيدي الناس، ولأجل ما كان يصل من هذه الأمور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان رحمه الله يبذل مجهوده في إمداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك، ثم لم يكن إلا ما أراده الله.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف بعد ظهر يوم السبت العشرين من ربيع الأول منها توفي الفقيه العلامة المتفنن المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج المكي السدراتي السلاوي ودفن صبيحة يوم الأحد في الجبانة التي قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر، وشهد جنازته خلق كثير، وأمهم الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الهاشمي طوبى، وللفقيه أبي العباس المذكور شرح حفيل على موطأ الإمام مالك رضي الله عنه وهو موجود بأيدي الناس.

وفي سنة أربع وخمسين بعدها وذلك صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله طوبى المذكور آنفاً، وكان رحمه الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والأحكام محمود السيرة ذا سكينة ووقار.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف وذلك في سابع جمادى الأولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الأعظم من سلا، وكان المنار الذي قبله قد أصابته صاعقة تداعت لها أركانه فأمر السلطان رحمه الله بنقضه وإعادته جديداً فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم وصير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالاً وست أواق وثلث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية، وكان جل الصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس، وكان الذي يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الأبر الأخير السيد الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عواد.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة المحقق البارع أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مديدش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الأحكام، وشرح الشامل وحاشية الزقاقية وغير ذلك من التآليف الحسان رحمه الله ونفعنا به.

وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف غزا السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الإفساد وإخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شنعاء كسرت من حدهم وفلت من غربهم، وكتب السلطان رحمه الله في ذلك إلى ولده وخليفته سيدي محمد كتاباً من إنشاء وزيره أبي عبد الله بن إدريس يقول فيه ما نصه: «ولدنا الأرضى الأبر الأرشد سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقاً، وحملهم على الاستقامة بالإرهاب من الشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقاً، فلم يرد الله بهم خيراً لفساد نيتهم وخبث طويتهم واتكالهم على حولهم وقوتهم، فما رأوا منا ليناً وسداداً إلا ازدادوا شدة وفساداً، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشاداً إلا أظهروا تطاولاً وعناداً، وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وألفاً إلا ظنوا ذلك عجزاً وضعفاً، قد طمس الإعجاب منهم بصراً وسمعاً، ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندا في موضع السيف بالعلى مضربه كوضع السيف في موضع الندا

فلما رأينا لجاجهم في عمالهم وعدم رجوعهم عن هواهم، وأنهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم، ولم يراعوا ما نهب من زرعهم القائم والحصيد ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد، رأينا قتالهم شرعاً وجهادهم ذباً عن الدين ودفعاً، فاعتمدنا على حول الله وقوته وأمرنا بالزيادة عليهم في الأخذ والتضييق، والمبالغة في النهب والتحريق، وتركهم محصورين في أوعارهم ومقهورين في أوكارهم، إذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة، فتوالت عليهم الغارات وتتابعت عليهم النكبات لا يجدون إلى الراحة سبيلاً، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، ففي كل يوم تثمر العوالي رؤوس رؤسائهم، وتتخطف أيدي المنايا أهل بأسائهم، وكلما رادوهم إقداماً وطلباً ازدادوا توغلاً في الجبال وهرباً حتى نهكتهم الحرب، وضرستهم موالاة الطعن والضرب، وضاع بالحصار الكسب والمال ولحق الضرر الأولاد والعيال، فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين لحلفهم وجوارهم، وبلغ البؤس فيهم غايته وأظهر الله فيهم آيته، وهم في خلال هذا كل حين يتشفعون ويتذللون في قبول توبتهم ويتضرعون، ونحن نظهر لهم التمنع والإباية لنبني أمرهم على أساس الجد، ونجازيهم على ما ارتكبوه من خلف الوعد، فلما أنجزت القهرية فيهم وعدها، وبلغت العقوبة فيهم حدها، قابلنا إساءتهم بالإحسان، وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان، فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مثقال، وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعة، فقاموا بذلك أحسن قيام، وأعطوا المراهين في أداء المال بعد أيام، وكان أخذهم بعد تقديم الأعذار وتكرير الإنذار، وعفونا عنهم عفو غلب واقتدار، ورب عقاب أنتج حسن طاعة، وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والإضاعة، وفي الناس من لا يصلح إلا مع التشديد، وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد.

وما عن رضى منها عطية أسلمت ولكنها قد قادها للهدى القهر

أردنا بها الإبقاء فازداد عجبها وأدبها التشديد والفتك والأسر

ولو قيدوا النعمة بالشكر لأمنوا الزوال، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11]، والسلام، في فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بإيسلي قرب وجدة والسبب في ذلك

كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيس من لدن دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله، ولما حدث الشنآن بين ترك الجزائر والفرنسيس واستولى الفرنسيس على ثغورهم جاء أهل تلمسان إلى السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله راغبين في بيعته والدخول في طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر، ولما أعرى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر محيي الدين تحت كلمة السلطان برّ به وأحسن إليه وقاوم الفرنسيس بتلك البلاد أشد المقاومة إلا أن فائدة حربه كانت تظهر في قتل النفوس واستلاب الأموال، وفائدة حرب الفرنسيس كانت تظهر في انتقاص الأرض والاستيلاء عليها وشتان ما بينهما.

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الأوسط وصار الحاج عبد القادر يتنقل في أطرافها، فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك، وربما استكثر في هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده، فمد الفرنسيس يده إلى إيالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها وكثر عيثه

في الحدود فكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من إيالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة، وبمحاربة جيش السلطان المرابط على الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به، وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضاً في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة، ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشرى الشر وتفاقم الأمر فعمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيس وتقدم إلى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وإرهاف الحد لما عسى أن يحدث، ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك، ثم أخذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل، وقال في ذلك الوزير ابن إدريس أشعاراً يستنفر بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وإيقاظ العزائم له من ذلك قوله:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم	إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سلم أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الإسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه في نمط
وأنتم القصد لا تبقن في دعة	إن السكون إلى الأعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سقط
قد يغبط الحر في عز يخلده	وليس حي على ذل بمغتبط

وفي هذا الشعر تضمين بيت ابن العسال وهو مشهور، فاجتمع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً فيها

الجند وحصص القبائل في أكمل شكة وأحسن زي ولم يشهدها من الودايا سوى نفر يسير لأنهم كانوا في زاوية الإهمال عند السلطان، ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمٰن وسار حتى نزل بوادي إيسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلاً في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضرراً وحزمه خوراً بفساد نيته، واستفساده لجند السلطان ورعيته، ولما احتل الخليفة سيدي محمد بإيسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر: إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو مني رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره، وبين كيف كان هو يقاتله، وكان هذا الكلام منه صواباً إلا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بمحضره والإشارة عليه قبل استيشاره، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول: لم آمر بها ولم تسؤني، ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالا: إن العدو عازم على أن يصبحكم غداً إن شاء الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير فيقال: إن الحاجب قال: إن الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين، ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ

في الرحيل، فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة إلا الرماة وكانوا دون الألف، وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر، وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع، وكان الخليفة سائراً في وسطهم ناشراً المظلة على رأسه راكباً على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس.

ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلساناً آخر فاختفى حينئذ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها إقحاماً وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضاً ويسلب بعضهم بعضاً، فقال: يا سبحان الله! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه، وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضوبلي من غير فترة، وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين إلا المسلمون كما رأيت، ولما استولى العدو على المحلة فر النهاب الذين كانوا

بها وبقيت في يده بما فيها، وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف، ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنكاد يستلبنهم كيف شئن، وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاساً وكان السلطان رحمه الله قادماً من مراكش إلى فاس فاتصل به خبر الوقعة وهو برباط الفتح فنهض إلى فاس مجداً واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيس على طنجة والصويرة، ورميه إياهما بألوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياظمة المجاورين لهم فإنهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب، وكان ذلك أولاً في اليهود ثم عم غيرهم، وكان ما كان مما لست أذكره، فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد إلى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديباً لهم.

وذكر منويل هذه الوقعة فزعم: أن عساكر الفرنسيس كانت يومئذ عشرة آلاف وإنه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه إذا حارب وغلب لا يتملك من أرض المغرب شيئاً، قال: فلذلك لما وقعت الهزيمة بعث بإثرها رسله يطلب الصلح مع أن السلطان المولى عبد الرحمٰن لم يظهر عجزاً ولا فل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد اهـ كلامه.

ثم إن السلطان رحمه الله هادن الفرنسيس على يد الفقيه أبي سلهام بن علي آزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقائه هنالك من آثاره الفتنة بين الدولتين بلا فائدة، ودعت المصلحة الوقتية السلطان رحمه الله إلى أن أسقط عن جنس

الدينمرك وجنس السويد ما كانا يؤديانه إلى الدولة العلية كل سنة، فالأول خمسة وعشرون ألف ريال، والثاني عشرون ألف ريال، وكذلك أسقط عن غيرهم وظائف أخر والأمور كلها بيد الله ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وألف أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية، والريال الصغير الإفرنك بخمس عشرة أوقية، والبندقي بثلاثين أوقية، والدرهم الصغير بأربع موزونات، والكبير بست موزونات، ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الأسعار في الارتفاع أيضاً وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر وعلة ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيس هذا الصلح وأسقط السلطان عن الأجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لأهله، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها، وانفتح لهم باب كان مسدوداً عليهم من قبل فظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع، أما السكة فلأن سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجاناً من سكة المغرب، فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والأرباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدي إليه غيرهم من العامة وتبعهم على ذلك تجار المسلمين، وأما السلع فلأن تجار النصارى يغالون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل إلا وسككنا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء فتأمله والله الموفق.

وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد بن الحاج محمد السوسي، وكان السبب في ذلك أن الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتبوع العقب فيها وكان كثيراً ما يجالس

العامل المذكور ويدلي عنده بالصداقة والمودة فيقال إنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته، فغضب الزبدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سئموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لأسباب تعدها الرعية على العمال فجاء الزبدي إلى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد ممن يعلم انحرافهم عن العامل المذكور وأطعمهم وأطلعهم على خبيئة صدره في أمر العامل فوجدهم إليه سراعاً فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متولياً عليهم بحال، ثم مشوا إليه وأنذروه وتقدموا إليه بأن يلزم بيته ثم أجمع رأيهم عل تقديم الزبدي مكانه فقدموه وضبط أمر البلد، واتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب إليهم بالوعظ والتقريع فصموا عن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث إليهم القائد الطيب الوديني البخاري يتولى عليهم ويقبض على أهل الفساد منهم فأفحشوا عليه وطردوه من البلد مع العشي، فعبر إلى سلا في مطر غزير ورجع إلى السلطان فأعلمه الخبر، فاحتال السلطان رحمه الله بأن بعث الفقيه الكاتب أبا عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخيرهم فيمن يتولى عليهم فاختاروا الزبدي فولاه السلطان عليهم وحمدوا سيرته، وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وتريث بها مدة حتى نقر عن رؤوس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدهم الزبدي وبعث بهم إلى فاس فسجنوا بها ثم سرحوا بعد حين.

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف نهض السلطان من فاس ونهض الخليفة سيدي محمد من مراكش والتقيا بمشرع أبي الأعوان من دكالة وعيدا هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان إلى مراكش وانحدر الخليفة إلى فاس، وفي هذا العيد بعث أبو عبد اللّه أكنسوس إلى السلطان بالقصيدة.

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وألف تم بناء البرج الكبير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة، وكان السلطان رحمه الله شرع في بنائه زمان انتقاض الصلح مع الفرنسيس وتم في هذه المدة على أكمل الأحوال وأحسنها.

بقية أخبار الحاج عبد القادر
وانقراض أمره وما آل إليه حاله

قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب، فلما كانت الهزيمة بإيسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل، ثم احتال بأن بعث جماعة وافرة من الحشم وبني عامر شيعته إلى السلطان قدمهم أمامه في صورة هراب مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبو، ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل إلى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس، وكان قصده أن يجتمع بشيعته ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد، فلما أطلع السلطان على دسيسته بعث إلى أولئك الجماعة عسكراً من الشراردة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك أنهم اعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص، وكانوا يجمعون موتاهم وينصبونهم أشباراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه، ولما أعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيديهم فراراً من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسار، وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدي محمداً لحسم دائه في جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي المدعو أبا محمد، وكان له ذكر في الشجاعة والرأي، ولما وصل الخليفة إلى سلوان بعث إليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدي يتنصل مما رمي به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان، وقدموا إلى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على السلطان رحمه الله فينهوا إليه الأمر والعمل على ما قال

فوجه معهم الخليفة من يصحبهم إلى أبيه بفاس، وفي أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب انتقاهم انتقاء، وكان جيش الخليفة منقسماً قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه المولى أحمد فضمد الحاج عبد القادر إليهما

في ليلة من جمادى ذات أندية   لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره، فلم يقف بهم إلا بين المجلتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه، وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار، وأمر العسكر والطبجية بالرمي بالكور والضوبلي فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد ظناً منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون إلى جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الحاج عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، وكان للقائد محمد في تلك الليلة ذكر، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفراً أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك، فلقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى، ثم إن الخليفة رحمه الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانياً بمشرع الرحائل من وادي ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر، فصدمته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كماته وكسرت شوكته، وفل حده وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله، ففر إلى الفرنسيس ولجأ إليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة عليها.

حكى من حضر أن الخيل كانوا يطردون الجماعة من أصحاب الحاج عبد القادر وهم راجلون ليأسروهم فما كانوا يدركونهم إلا بعد المسافة البعيدة جداً، والحاصل أن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف وبصارته بمكائد الحرب معلومة لولا ما ذكرناه من انعكاس حاله وورومه الاستبداد وخلعه طاعة الإمام الحق الذي كانت بيعته في عنقه.

واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبنا إلى تعصب وسوء أدب، والجواب أنا ما حكينا إلا الواقع، وأيضاً فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله: حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقد في إطراء ذلك العدو وما عرفته من فضله، فأنكر علّي بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان قد غلب عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وآكد للفضيحة؛ فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض اهـ.

ولما كان هذا الفتح كتب السلطان إلى البلاد وزينت الأسواق وأعملت المفرحات، ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح: وبعد، فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان، أبعد في الجسارة، وامتطى مطي الخسارة، واستوسع سبيل العناد، واستضل سبيل الرشاد، وقال من أشد منه قوة، وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة، وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام، فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح، واستبطن المكر والخداع، وفاق فيه عابدي ود وسواع، وشاع في طرف الإيالة ضرره، وساء مخبره، وهو في خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوي بها أهل الجهالة، والعماية والضلالة، فأيسنا من رشده، وعرفنا مضمر قصده، فجهزنا له محلة منصورة ذات أعلام منشورة، جعلنا في وسطها ولدنا الأبر سيدي محمد أصلحه الله وأسندنا إليه

أمرها، وقلدناه تدبيرها، وعهدنا إليه أن يسعى في حقن الدماء جهد الإمكان، ويحتال على إقامة أود هذا الفتان، وأن يعالج داءه بكل دواء، وأن لا يتبع فيه الأغراض والأهواء، وأن يجعل القتال آخر عمله، وعدمه غاية أمله، فلما رأى عدو نفسه إحاطة الجيوش به، وجه وفداً من قبله يدعي التوبة فيما مضى، والكون على وفق المقتضى، فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدقه، إن صاحبكم هذا إن أراد الخير لنفسه، واحتاط لدينه وعمل لرمسه، يختار أحد أمرين: أما أن يدخل لإيالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر، فطلبوا منا الإمهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالملاقاة، ويستدركون الأمر قبل الفوات، فأجبناهم إلى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلاً فرده الله بالخيبة، وأشوه أوبة، وترك قتلاه صرعى بعد ما حمل منهم عدداً وجعل يدفن منهم في قفوله، ويخفي ما حل به في أفوله، فتقدمت إليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالاً أذاقته فيه الوبال والخبال، فكانت الكرة عليه فأجفل إجفال النعام، واستدبر المعركة وهام، ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوي بأسائه عدد معتبر، ومن هو أدهى وأمر، وعادت جموعه جمع تكسير، وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير، وسخر بهم بعد أن كانوا ساخرين، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ومن الله أستمد التوفيق والهداية إلى أرشد طريق. والسلام، في الثاني والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف وأما الحاج عبد القادر فإنه فر إلى الفرنسيس كما قلنا فبقي عنده مدة.

قال صاحب قطف الزهور ما صورته: لما فر الحاج عبد القادر إلى الفرنسيس بقي عندهم ست سنين ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتباً سنوياً يدفع إليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطناً بها إلى هذا اليوم اهـ. قلت: وهو الآن في قيد الحياة حسبما يبلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين، ويتداركهم بلطفه وفضله آمين.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس: وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفي الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم، إمام عملة اليراع، ومقدم حملة ذلك الشراع، مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام، في المواقف العظام، والمزري ببدائعه، وأوابده وروائعه، ببديع الزمان، والفتح بن خاقان، أبو عبد اللّه محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا كلما لاح نجم وأضا، فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الأخلاق العاطرة، والأنامل الواكفة الماطرة، والرأي الأصيل والأمر المحبوك، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك، أبو عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي، ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرة مراكش، آخر قدمة قدمها سنة سبعين ومائتين وألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب اليحيى النزيه أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الصفار التطاوني.

وفي أوائل رمضان من هذه السنة أعني سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس إلى ناحية وجدة، فوصل إلى عين زورة فوقف على تلك النواحي وأصلح من شأنها وعاد إلى فاس ليلة عيد الأضحى من السنة.

وفي سنة خمس وستين ومائتين وألف كانت فتنة عرب عامر بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رباط الفتح، وكلب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليهما بالغارات والنهب والمبالغة في العيث والإفساد بالطرقات والجنات واستافوا السرح مراراً وبقي النتاج عند أربابه حتى هلك ضياعاً إلى غير ذلك، ولما تجاوزوا الحد في الطغيان بعث السلطان وصيفه الباشا فرجى صاحب فاس الجديد فأوقع بعامر وقعة شنعاء رابع يوم النحر من السنة ومزقهم شذر مذر بعد أن تحصنوا بالغراك فيما بين سلا والمهدية.

وفي هذه السنة حج ولد السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتنى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة. وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع في ناحية المغرب ويغرب بعد

العشاء مدة من شهر ونحوه، ففزع الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام:

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وفي سنة ست وستين ومائتين وألف أحدث السلطان المكس بفاس وغيرها من الأمصار، أحدثه أولاً في الجلد على يد المصطفى الدكالي بن الجيلاني الرباطي، والمكي القباج الفاسي، ثم أحدثه في البهائم، ثم تفاحش أمره في دولة ابنه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله وهلم جرّاً.

وفي هذه السنة وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفي ولي الله أبو عبد اللّه سيدي عبد القادر العلمي البركة الشهير صاحب الأزجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدي أبي الطيب وعليه بناء حفيل إلى الغاية رحمه الله ورضي عنه. وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد القادر وهو ابن اثنتي عشرة سنة إلى سلا بقصد القراءة بها فنزل بدار قاضيها أبي عبد اللّه محمد بن حسون عواد وكتب إليه السلطان رحمه الله بأن يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملبس، وأن لا يمكنه من شرب الأتاي إلا مرة أو مرتين في الجمعة. وفي هذه السنة أيضاً كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين وعبدة ودكالة وغيرهم، فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزي وعام يرني، وكان الرجل يأكل ولا يشبع، وإذا أمعن في الأكل وتضلع شبعاً لم تمض إلا هنيئة حتى تضطرم أحشاؤه جوعاً، وكان المد بسلا ورباط الفتح وهو مد كبير جدّاً قد بلغ ثمانية عشر مثقالاً فجعله العامة تاريخاً يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالاً.

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف وذلك ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد اللّه محمد بن حسون عواد ودفن بزاوية الشيخ سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي من

حومة باب أحسين من المدينة المذكورة وكان رحمه الله عارفاً بالفقه والحديث والنحو قد أفنى عمره في جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيف، وكانت فيه شفقة على الضعفاء والأشراف وذوي البيوتات، كثير البرور بهم والإحسان إليهم رحمه الله. وفي يوم الأربعاء فاتح هذه السنة توفي الشريف البركة الأفضل أبو عبد اللّه سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني، وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وبأسلافه.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيس على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا إلى مرسى العدوتين مملوءين قمحاً وكانت السنة سنة مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة إليهما وانتهبوهما ثم تجاوزوا ذلك إلى ألواح المركبين وآلتهما فتوزعوها، وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا في شأنهما مع السلطان رحمه الله فكتب إلى عامل سلا أبي عبد اللّه محمد بن عبد الهادي زنيبر يستكشفه عن الخبر فجحد ذلك ظناً منه أنه يدفع بذلك عن البلد، ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة في خمسة بابورات وقاباق كبير، ويقال له النابيوس، يشتمل على نحو ستين مدفعاً أو أكثر، ومن الغد زحف بمراكبه حتى سامت بها البلد في الساعة العاشرة من النهار وشرع في رمي الكور والبنب إلا واحداً منها فإنه تباعد قليلاً وبقي ينظر قيل هو للنجليز، وكان ترادف الكور والبنب على البلد على صورة فظيعة مثل الرعد القاصف تكاد تنهد له الجبال، وكان في أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات يسيرة، واستمر الحال على ذلك إلى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمي ثماني ساعات ونصفاً، وبذل الناس مجهودهم في مقابلتهم بالرمي وفي آخر النهار عجز الناس وبقي يرمي وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس، وكان الكور والبنب الذي رمى به العدو في ذلك اليوم شيئاً كثيراً، فالمقلل يقول سبعة آلاف، والمكثر يقول اثنا عشر ألفاً، وكان البنب يتفرقع بعد مدة وقتل أناساً ووقع في المسجد الأعظم ومناره كور كثير خرق

السقوف والحيطان وكذا في دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس بإصلاحها من بيت المال.

وقد ساق منويل خبر هذه القصة وقال: إنه لما انقضى للفرنسيس الزاد يعني الكور والبارود أقلع ليلاً لأنه خاف إن لم يذهب طوعاً ذهب كرهاً، ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو يومئذ بفاس كتب كتاباً يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، عبد الرحمٰن بن هشام الله وليه، خديمنا الأرضى الطالب محمد بن عبد الهادي زنيبر وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد وصلنا كتابك مخبراً بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيس من استرسال الرمي على المدينة من ضحى النهار إلى قرب العشاء، ثم أقلعوا بالخيبة والهوان وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات واليقين ما قرت به عين الدين، وكان قذاً في عين أهل الشرك المعتدين، واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية، فالحمد لله على إعزاز دينه ونصر ملة نبيه، ولا زالت والحمد لله مشكاة الإسلام ساطعة الأنوار، مشيدة المنار، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8]، ولا يخفى عليكم ما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد في سبيل الله والصبر لإعلاء كلمة الله، وقد قمتم بالواجب عليكم في ذلك وكنتم عند الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله ورضي عنكم، ومن قتل فقد أكرمه الله بالنعيم الذي لا نفاد له وكل ما تلف يخلفه الله فما كان في الله تلفه فعليه سبحانه خلفه، فزيدوا في التيقظ والصبر أعانكم الله، وقد أمرنا خدامنا أمناء العدوتين بتوجيه معلمين للغابة لقطع الكراريط وكتبنا لخديمنا ابن الحفيان بإنزال خيام بقربهم يأوون إليها حسبما طلبت ولا تعدمون شيئاً مما يخصكم إن شاء الله، وما ذكرت من اجتماع أهل المدينة عندك مع القاضي والأمين راغبين في الكتب لحضرتنا العلية بالإنعام عليهم بما يصلحون به صقالتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن كتبنا لأمناء العدوتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهدمة دور

وغيرها بمحضرك مع القاضي والعدول وتقويم إصلاح كل محل بالمناسب، وأما الجامع الكبير وسيدي ابن عاشر فييسرون لهما الإقامة وعند تيسيرها يشرعون في إصلاحهما، وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الآن في إصلاحهما إصلاحاً متقناً بالطابية الجيدة التي لا يؤثر الكور فيها شيئاً ويجعلون لها ساتراً على كيفية بحيث يكون الضارب في أمان ولا تتراخوا في ذلك، ونحن على نية إحداث بستيون جيد إن شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزم العزم والحزم الحزم، ويصلك كتاب اقرأه على خداماً أهل سلا والسلام، في ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحدث السلطان رحمه الله هذا البستيون فجاء في غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام.

وفي هذه السنة ورد كتاب من السلطان في شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه: وبعد، فقد طالما حاولنا حصر الزيادة في السكة وحذرنا وأنذرنا وأوعدنا من تعدى فيها حداً أو مد فيها بغير ما عينا يداً فلم يزد الناس إلا تطاولاً فيها وإقداماً عليها فاستخرنا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميماً للأعذار وتكميلاً للإنذار، فمن وقف عند ما حددنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله، ومن تعدى وافتات في ذلك بأدنى شيء فقد سعى في هلاك نفسه ويناله من الوبال والنكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكر، وقد أعذر من أنذر، وها نحن جعلنا للبندقي أربعين أوقية، وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالاً، وللريال ذي المدفع عشرين أوقية، وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية، وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواق، وللتي لا مدفع فيها أربع أواق، وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة، وللدرهم السداسي سبع موزونات، فعلى هذا العمل، فأعلموا به من إلى نظركم وفي إيالتكم ومروهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشممتم عليه رائحة الخوض والتعدي فيه ازجروه زجراً شديداً وأعلمونا والسلام، في رابع عشر ربيع الثاني عام ثمانية وستين ومائتين وألف.

وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف غزا السلطان رحمه الله قبيلة زمور الثلج وكان بمكناسة فكتب أولاً لابنه وخليفته سيدي محمد بمراكش فنهض منها ومر على تادلا فأوقع ببني موسى، وقطع منهم أربعة وستين رأساً وقبض على مائة وخمسين مسجوناً وكانوا قد قتلوا عاملهم أبا العباس أحمد بن زيدوح، ثم دخل الخليفة رباط الفتح يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به إلى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادي ونزل بقرميم من أعمال سلا، ثم سافر من الغد وبات بسيدي علال البحراوي فأقام هنالك يومين، ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام أياماً ثم تقدم إلى دار ابن الغازي وكان السلطان رحمه الله قد خرج من مكناسة فنزل الخمسينات وشن الغارات على زمور فتوغلوا في الجبال فانتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم إلى مراكش، وارتحل الخليفة إلى فاس وذلك في السادس والعشرين من ذي القعدة من السنة، ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة ويجتمعان عليهم فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تعدم عندهم الأقوات وأذعنوا إلى الطاعة طوعاً وكرهاً، ولما نهض السلطان عنهم في هذه المرة كتب كتاباً يقول فيه: وبعد، فإن فساد زمور يعرفه الخاص والعام والجمهور. أشد سواداً من الليل وأقوى مضاهاة بالسيل، وطالما ذكرناهم ووعظناهم، وحذرناهم وأنذرناهم، وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شدتهم باللين، وتحريكهم بالتسكين، فأطغاهم العجب وأبطرهم، وغطى الشر سمعهم وبصرهم، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41] ، ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الإقلاع، وشعائر الإسلام استولت عليها يد الضياع، استنهضنا إليهم الجيوش المنصورة، التي لم تزل ألوية الفتح أمامها بحول الله منشورة، واستقدمنا ولدنا الأبر سيدي محمداً حفظه الله من مراكش في جيش يقدمه اليمن والإقبال ويسوقه السعد في المقام والترحال، ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون في جيش شحن الفضاء وملأ النواحي والأرجاء، خيلاً ورجالاً خفافاً وثقالاً، وكنا فيما تقدم

نحارب هؤلاء المفسدين في المحل المشهور بالخميسات فكانت المحال لا تستوعبهم قتلاً ونهباً وتشريداً وضرباً، فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أولاً بعين العرمة محل أفسدهم على الإطلاق والشمول والاستغراق، فخيمنا بها أياماً ثم رحلنا منها ونزلنا بمحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخميسات، وفي خلال مقامنا ورحيلنا حل ولدنا سيدي محمد حفظه الله من الرباط ونزل بتيفلت محل المفسدين، ومحط رحال البغاة المعتدين، وتقاربت المحلتان فعظمت على المفسدين بذلك النكاية وبلغت فيهم الحد والنهاية، واشتغلت المحال بأكل زروعهم وتبديدها واستخراج خباياهم قديمها وجديدها، وهم حيارى ينظرون، وإلى ما حل بهم من البلاء يبصرون، وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان، وتخطفت رؤوس زعمائهم العقبان، فعجزوا إذاً وخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشقاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم، ولم يبق بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس، وتحصنوا بأوعارهم المعلومة وصياصيهم المشؤومة، في جبال تنقبت بالغيوم وكادت تصافح النجوم، فضاق بهم الحال وهلك العيال، وضاعت الأموال جوعاً وعطشاً، وتصرف فيهم البلاء كيف شا، ومع تحصنهم بتلك الأوعار وملتف تلك الأشجار، كانت الجيوش تود أن تقتحمها عليهم وتهب نفيس أعمارها في أخذهم، ونحن قد هبنا الرفق الذي يزين وتركنا الخرق الذي يشين، فأمرنا بالإمساك عنهم حتي تلفظهم أوعارهم وتحرقهم نارهم، فلما طال بهم الأمد وتجرعوا حمى الكمد، استجاروا بولدنا سيدي محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومثالب نبذوها، وجنحنا إلى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما، وأسندنا أمرهم إلى ولدنا المذكور قطعاً لأعذارهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين، والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين آمين، في السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعة وستين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً، وفي أوائلها استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأفضل أبا عبد الله محمد بن عبد الله

الصفار التطاوني عقب قدومه إلى مراكش، وفيها تم بناء البستيون العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطىء البحر، وكان الصائر عليه بأمر السلطان من أحباس المسجد الأعظم برباط الفتح خمسون ألف مثقال أو ما يقرب منها، وفيها أيضاً وقعت نادرة بفاس وهي أن الإمام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القرويين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبص المبني به السقف تزن نحو ربع قنطار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرآهم الذين من خلفهم ففروا لفرارهم فرآهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون إلى الأبواب ووقع عليها ازدحام شديد وجاوزت مقدمتهم سوق الشماعين وتركوا نعالهم ولبدهم وطيالسهم بل وقلانسهم وضاع من المصاحف والأجزاء ودلائل الخيرات ما لا يحصى، كل ذلك وهم لا يدرون ما وقع وما تراجعوا إلا بعد حين.

ثورة إبراهيم يسمور اليزدكي بالصحراء

لما كانت أواسط إحدى وسبعين ومائتين وألف ظهر إبراهيم يسمور اليزدكي بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزبين: حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر، وحزب آيت يفلمان وهم دون ذلك، وكانت آيت عطة تؤذي الأشراف بتلك الناحية وتسيء جوارهم فقام إبراهيم هذا في آيت يفلمان وجنح إلى الأشراف وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وصار يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحض قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثر الثناء عليه، واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شنآن فزحف إليهم إبراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغبطة وعلقت به آمال الأشراف وأحبوه لأن غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الأمر الغريب، وانضم إلى ذلك بسط يده بالعطاء للبعيد والقريب واتصل خبره بالسلطان وكان من طبعه رحمه الله محبة أهل الخير والجنوح لهم، فأقبل عليه

ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فأراد الاستبداد واستحال حاله إلى الفساد، حتى صار يرد على السلطان أوامره، ثم تدنى قليلاً قليلاً من أطراف المملكة وقوي حسه بالمغرب فكتب إليه السلطان رحمه الله الكتائب وبعث البعوث فقاتلوه برهة ثم قبض الله بعض قرابته فاغتاله واحتز رأسه وجاء به متقرباً إلى السلطان وهو يومئذ بمراكش فأمر السلطان بإعمال المفرحات واستدعى أهل مراكش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالإحسان غمر الديم.

نادرة: كان ممن استدعاه السلطان رحمه الله في هذا الصنيع أهل المدارس من طلبة العلم المتغربين بها، فجلسوا ناحية من القوم ولما خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخيره عن هؤلاء الطلبة، واتفق أيضاً أن سأل بعض الحاشية بعض الأعوان القائمين على الطعام فقال له: من الذي بقي بدون إطعام فقال: لم يبق إلا الطلبة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لأصحابه: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟ فقالوا: وما قال؟ قال لهم: قال إنه لم يبق إلا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطف بالواو والله لا جلستم، وقاموا مغضبين فتبعهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا، واتصل الخبر بالسلطان فقال دعهم فسنصلح شأنهم، ومن الغد دعاهم إلى بستان الوزير ابن إدريس داخل باب الرب من مراكش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حتى رضوا، ثم عمدوا إلى ثمار البستان فاستلبوها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمه الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلم وأهله، وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل:

إذا شوركت في أمر بدون ... فلا يك منك في هذا نفور
ففي الحيوان يجتمع اضطراراً ... أرسطاليس والكلب العقور

وتحقيق مسألة هذا العطف مذكور في باب الفصل والوصل من علم المعاني، وبستان ابن إدريس هذا هو الذي يقول فيه أبو عبد الله أكنسوس رحمه الله:

ألمم بمغنى اليمن من ذا المجلس وأدر بساحته نجوم الأكؤس
واسعد فإن الدهر أسعد أهله وأحلهم فيه حلول المعرس
واشرب هنيء البال في جنباته يغنيك عن جيرون أهل المقدس
واصرف عن الزهراء ذكرك سالياً وعن الخورنق والرسوم الدرس
لو قلت ما نالت بدائع حسنه غرف البديع وحق مجدك لم تس
نصر تحف به المحاسن كلها وتحار في مرآه عين الأكيس
فإذا أردت إصابة الأغراض من كل المنى أو كل معنى أنفس
أرسل مهام اللفظ في أكنافه إن الحنايا الحدب فيه كالقس
لا شيء أهنى من تفيىء ظله الـ ـمخضل أو من زهره المتنفس
تتمثل الأزهار في أنهاره مثل المجرة والنجوم النكس
وترى الجداول تلتوي بغصونه تحكي البرين عن الغواني الميس
طابت حسى الكاسات تحت ظلاله وتسابقوا اللذات نحو المحتس
يا منزلاً قد خصصته سعادة واستبدلته أنعماً من أبؤس
أصبحت مأوى للوزير محمد نجل الأدارسة الكرام المغرس
إنسان عين الكون من لبست به رتب العلى أبهى وأبهج ملبس
يا أيها البحر الذي من فيضه كل الأماني والغنى للمفلس
يهنيك ذا القصر الذي أنشأته بالسعد في عام انشراح الأنفس
قابل قدور الدوح في جنباته بالغيد ترفل في بهي السندس
ومتى شربت زلاله فامزج به راح المراشف من أغن ألعس
لا زلت تشرف من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندس
والدهر يخدم جانبيك ويحتمي بجلالك العالي الأعز الأقعس

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب وهو إسهال مفرط يعتري الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فإذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعاً وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحتف، وفي هذا الوباء مات

شيخ الطريقة أبا عبد اللّه سيدي محمد الحراق التطاوني، وبموته أقلع الوباء من تلك البلدة، ومات به بسلا منتصف ذي القعدة من السنة مائة وعشرون نفساً، وفي هذا اليوم توفي عامل سلا أبو عبد اللّه محمد بن عبد الهادي زنيبر.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف التفت الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمٰن إلى عرب الخلط فاستعملهم في الجندية بعد أن كانوا في عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدي فاعتنى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبني مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقوطة ووادي مكس من أعمال مكناسة، وكساهم وأجرى عليهم الجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاث.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: خديمنا الأرضى الطالب عبد العزيز محبوبة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فبوصول كتابنا هذا إليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تاطبجيت وانظر لهم معلماً ماهراً أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون في التعلم الآن فيبدؤون بمقدماته ثم يتدربون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهراس وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة، ونطلب الله أن يعينهم ويفتح بصائرهم، وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية، ونأمر الأمناء أن يرتبوا لهم إعانة على ذلك خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد، ثم من ظهرت نجابته منهم وفاق غيره فإنا نزيده في المرتب، كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو اثنين ثلاثين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء، وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه والسلام، في عشرين من ذي القعدة عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهي قسمان: قسم في أمور التجارة، وبيان الصاكة والأعشار، وأن لا تعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهي خمسة عشر شرطاً. وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعيتي الجانبين في أي موضع كانوا، وهي ثمانية وثلاثون شرطاً، وكان المباشر لعقدها أبو عبد اللّه محمد الخطيب التطاوني بطنجة.

بعث السلطان المولى عبد الرحمٰن أولاده إلى الحجاز وما اتفق لهم في ذلك

وفي سنة أربع وسبعين ومائتين وألف بعث السلطان رحمه الله أولاده إلى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد اللّه والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد اللّه وبالغ السلطان رحمه الله في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة، وبعث معهم من الأموال شيئاً كثيراً لأشراف الحرمين، ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار والأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني التطاوني، والحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني، وبعث معهم قاضي مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة المري الفاسي وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد بن سودة في جملة من الفقهاء يقرؤون عليهم.

أخبرني الحاج عبد الكريم بن الحاج أحمد الرزيني وهو أخو الحاج محمد المذكور آنفاً أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده إلى الحجاز استدعى الأمين الحاج محمد المذكور فدخل عليه

فأوصاه بما تنبغي الوصاة به وأخبره أن المال الذي عينه للنفقة على الأولاد المذكورين هي نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول بتافيلالت وبعضها من غيرها مما هو حلال وقال له: احتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام، اهـ ولما عزم الأولاد المذكورون على الانفصال إلى وجهتهم أصحبهم السلطان رحمه الله وصية كافية يقول فيها ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أولادنا عبد الله وإبراهيم وعلياً وأبا بكر وجعفراً وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وأرشدكم وتولاكم، وكان لكم في سائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور، وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظليلة والسحابة المنيلة، وخير الآباء للأبناء ما لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق، وخير الأبناء للآباء ما لم يدعه التقصير إلى المخالفة والعقوق، قال رسول الله ﷺ: **«الأولاد من رياحين الجنة»** وقال القائل:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا ... تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم ... تمتنع العين من الغمض

هذا وإن أولى ما زود به والد ولده وصية يتخذها في سفره إمامه ومعتمده، فاعلموا أنا وجهناكم لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، واستودعناكم الله الذي لا تضيع ودائعه، فاقدروا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها، واعرفوا حق هذه العبادة التي يممتموها، فتوجهوا لها بحسن النية راجين من الله سبحانه بلوغ القصد والأمنية، وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية فإن خير الزاد التقوى، وبما أوصى به إبراهيم بنيه ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]، وبما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: 13، 17]، الآية واستوصوا بعضكم بعضاً خيراً وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وأخوكم مولاي عبد الله أكبركم فكونوا عند إشارته فإن للسن حقاً في

التقدم، وفي الحديث الشريف: كبر كبر، ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجيل الفكر فيمن نوجهه معكم حتى وقع اختيارنا على خديمنا الحاج محمد الرزيني لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الأوصاف المحمودة ما افترق في غيره، فكونوا له بمنزلة الأولاد البررة وليكن لكم بمنزلة الوالد الشفيق كما قال القائل:

وكان لها أبو حسن علي أباً براً ونحن له بنين

وآزرناه بالحاج أبي جنان البارودي لمروءته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله، وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه الأوحد المشارك السيد المهدي ابن سودة وتوجه معه أخوه وهو أيضاً ممن يشفع بعلمه فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد إليه الرسول فهذب وأدب إذ قال: **«ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»** وحافظوا على دينكم واشتغلوا بما يعنيكم، واتركوا ما لا يعنيكم، ففي الحديث الشريف: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** واعكفوا على قراءتكم ولا تضيعوا الأوقات في البطالة خصوصاً ما يتعلق بالعبادة التي أنتم بصددها، فمن الآن اصرفوا كليتكم لقراءة المناسك وابدؤوا بأسهلها وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها إلى ما هو أوسع فروعاً وأكثر مسائل، وعلى الفقيه السيد المهدي المذكور أن لا يألو جهداً ونصيحة في تعليمكم والقراءة معكم، واجعلوا أيضاً وقتاً مع أخيه فإنه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عذر في التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الأصحاب والأتباع والدايات فهو في رعايتكم، وفي الحديث: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**، فعلموهم أمر دينهم ومناسك حجهم وخاطبوهم في ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم في صحيفتكم، وفي الحديث: **«خيركم من تعلم وعلم»** وفيه أيضاً: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»** وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال، وكونوا على ما ينبغي من الأدب مع الخلق ومع الخالق، وهذبوا أخلاقكم وهشوا وبشوا لملاقاة الناس وعاملوا كل واحد بما يستحقه، ولا زال الناس يذكرون هنالك أخاكم مولاي سليمان

أصلحه الله ويدعون له في تلك الأماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره وبشاشته مع الناس، ونعهد إليكم أن لا تتركونا من الدعاء في أي موطن حللتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصاً عند الملتزم والمقام وغيرهما من الأماكن التي ترجى إجابة الدعاء عندها، وتوبوا عنا في استلام الحجر الأسعد وفي زيارة قبر النبي ﷺ والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعليكم بالاستقامة في جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والائتلاف، وترك المشاجرة والاختلاف، ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فإن له مزيد تسلط بالشر في طرق الخير فكونوا في جميعها على حذر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6] نسأل الله لكم الحفظ والسلامة والأمن والعافية ذهاباً وإياباً في أنفسكم ودينكم ودنياكم، ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتم عملكم فتوجهوا في حفظ الله على مهل حتى تصلوا إلى القصر وأقيموا به في جوار أبي الحسن بن غالب نفعنا الله وإياكم ببركاته كما فعل إخوانكم قبل فإن المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البابور ويكتب لكم الخطيب بالإعلام وحينئذ توجهوا إليها راشدين، وقد كتبنا بذلك للطالب محمد الخطيب، وطالعوا الحاج محمد الرزيني على كتابنا هذا حين تتلاقوا معه إن شاء الله، واعلموا أننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشتري بها حبس في سبيل الله عشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بمكة، وعشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً في سبيل الله بالمدينة المنورة، وهي من جملة ما حاز الحاج محمد الرزيني ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجر ذلك جارياً منتفعاً به إن شاء الله والسلام، في السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف.

قال أكنسوس: وكان ركوبهم من طنجة في قرصان النجليز، فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها وأبهجها وأشهاها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب وفرش الحرير

والديباج والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول إلى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين الملوكية التي يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة فقضوا مناسكهم وشفوا غلتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا إلى أعظم المقاصد وأسناها التي هي لنفوس المؤمنين غاية منأها زيارة شفيع الأمم في الموقف الأعظم، وكانوا صادفوا بمكة وخماً وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الأفاقين فمات من أصحابهم جملة ومات من أولاد السلطان المولى إبراهيم والمولى جعفر، الأول بمكة والثاني بالمدينة وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمه وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبته لمن مات، ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسمٰوات ووافقتهم السعادة في ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونال كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب في المسافة التي بين المدينة وينبع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع ولولا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجاب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد مماته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته ولا تنتهك حرمته، فلما بلغوا ينبع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامة تسوقهم، وأرباح التجارة والسعادة قد تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيول والعساكر السلطانية لتلقيهم، وخرج أهل

مراكش في زيهم وزينتهم وكان يوم لقائهم يوماً مشهوداً، وموسماً من المواسم المعظمة معدوداً اهـ.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي عالم فاس والمغرب والمجيد في صناعة التدريس والتحرير لا سيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الأوحد أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمٰن الفيلالي الفاسي، وكان المصاب به خصوصاً عند طلبة العلم عظيماً ولم يترك بعده في إجادة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمه الله ونفعنا به وفي ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الأخيرة زلزلت الأرض زلزالاً يسيراً، وفي رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن العربي فنيش السلاوي من مدينة لوندرة إلى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعاً ومهراسان عظيمان من المعدن وأشياء أخر من آلة الحرب، وكان جلبه لذلك بأمر السلطان المولى عبد الرحمٰن لعمارة البستيون الجديد بسلا الذي قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم. وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً وهي المرة الثالثة في هذه المدة.

وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولأول دخوله عزل الوزير أبا عبد اللّه الجامعي ورتب مكانه الفقيه أبا عبد اللّه غريط أياماً يسيرة، ثم استوزر الفقيه أبا عبد اللّه الصفار التطاوني، واستمر السلطان مقيماً بمراكش إلى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزا زمور الشلح واجتمع عليها هو والخليفة سيدي محمد على العادة، ثم صار الخليفة إلى مراكش وانحدر السلطان إلى مكناسة فاستمر مقيماً بها يغزو زمور الشلح ويعود إليها وربما ذهب في بعض

الأحيان إلى فاس إلى أن دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فمرض مرض موته، وقد كان ابتدأ به وهو منازل لزمور فنهض عنها إلى مكناسة وتمادى به مرضه إلى أن توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحم الله الجميع بمنّه، وقد كنت رثيته بقصيدة شذت عني الآن وأولها:

أمن طيف ذات الخال قلبك هائم ... ودمعك هام واكتئابك دائم
وهل أذكرتك النائبات عشائراً ... عفت منهم بعد المعالي معالم

ورثاه الفقيه أبو عبد الله أكنسوس بقوله:

هذي الحياة شبيهة الأحلام ... ما الناس إن حققت غير نيام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى ... منه لآدام رؤية استعلام
فيرى بداية كل حي تنتهي ... أبداً وإن طال المدا لتمام
والنفس من حجب الهوى في غفلة ... عما يراد بها من الأحكام
أوليس يكفي ما يرى متعاقباً ... بين الورى من سطوة الأيام
من لم يصب في نفسه فمصابه ... بحبيبه حكماً على إلزام
بعد الشبيبة شيبة يخشى لها ... ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها ... ويظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها ... وتكرر الإشراق والإظلام
لو كان ينجو من رداها مالك ... في كثرة الأنصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا ... أعلى ملوك الأرض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا ... في الغرب أو في الشرق أو في الشام
سر الإله ورحمة منشورة ... كانت سرادق ملة الإسلام
قصدته عادية الحمام فما عدت ... إن هددت علماً من الأعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقاً ... كلا ولا دفعت يد الأقوام
والملك في عز مهيب شامخ ... وإمامه في جرأة الضرغام

عجباً لها لم تخش من فتكاته ... والأسد تزأر حوله وتحامي

عجباً لها لم تستح من وجهه ... والوجه أبهج من بدور تمام

عجباً لها لم ترع طول قيامه ... متهجداً لله خير قيام

تبّاً لها لم تدر من فجعت به ... من معتق وأرامل الأيتام

أسفاً على ذات الجلال وأنه ... لأجل من أسف وفرط هيام

يا مالكاً كانت لنا أيامه ... ظلاً ظليلاً دائم الإنعام

لا ضير أنك قد رحلت ميمماً ... دار الهناء وجنة الإكرام

في حضرة تغدو عليك بشائر ... من حورها بتحية وسلام

ضاجعت في تلك القصور كواعباً ... درية الألوان والأجسام

تسقيك صرف السلسبيل مروقاً ... وتدير كأساً من مدام مدام

فلك الرضى فانعم بما أعطيته ... ولك الهناء بنيل كل مرام

بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن وسيرته ومآثره

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الإمام الجليل السري النبيل من مناقبه خصلتان: إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاختلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيته أيضاً، فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمٰن رحمه الله هو المولى إسماعيل الثاني، وأما حزمه وضبطه وكمال عقله وتأنيه في الأمور ووضعه الأشياء مواضعها وتبصره في مبادئها وعواقبها وإجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئاً بعد أن قصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمه الله وقد رأيت كيف نزلت به النوازل وترادفت عليه الهزاهز من غير معين يذكر أو وزير يعتبر إلا في القليل النادر، فقام رحمه الله بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكي

إلى أصله وأحل عزه في محله، وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توقفاً تاماً إلا إذا حصحص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم، وأما آثاره بالمغرب فشيء كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسى طنجة وصير عليه مالاً عظيماً حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان، ومن ذلك تجديد الحرم الإدريسي بفاس وبناء مسجده وتوسعته وتنميقه حسبما مر، ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشبار الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الأعظم منها وخزين البارود بالقليعة وغير ذلك، وأشبار الكبير برباط الفتح، وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين إحداهما الصخيرات والأخرى قصبة أبي زنيقة فأمن الناس بهما وارتفقوا بالتردد إليهما، وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصير عليها أموالاً ثقالاً فجاءت في غاية الإتقان والحصانة، ومن آثاره بمراكش آجدال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه إلا الاسم فأعاده إلى حالته الأولى على ضخامته وانفساحه وعلو بنائه، وتجديد جامع الكتبيين مرتين وإصلاح قبة الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه، والزيادة في جامع الشيخ أبي إسحاق البلفيقي بسوق الدقاقين منها، وهدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهيئة حسنة، وبناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولاً، وبناء جامع القنارية والزيادة فيه، ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينية.

قال أكنسوس: وكان هذا البستان خراباً تألفه الوحوش مع أنه بباب دار السلطان وفي سرة الحضرة، وقد كان في الدول المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وفيه مقاعدهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى إلى أن قال: وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا، ثم أخنت عليها الأيام بصروفها ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرآها

الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنقذوها من أوحالها، مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياها وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله

كان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشأ وشب، وكان متميزاً عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه ومتصفاً بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائر خصال الخير، واستخلفه أبوه صغيراً فجرى على السنن الأقوم وحمدت سيرته، ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فوض إليه، وألقى بزمام مملكته بيديه، ولم يدخر عنه شيئاً من أمور الملك ووظائفه، فاستلحق في أيام أبيه واستركب واتخذ العساكر وجند الأجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطى ومنع حتى كأنه ملك مستقل، وكانت العادة أنه إذا كان السلطان بمراكش كان سيدي محمد هذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس، فلما مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناسة كان سيدي محمد بمراكش فلم يرعه إلا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبي عبد اللّه الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه، فنهض سيدي محمد من مراكش منزعجاً وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السراغنة على مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله، ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش البخاري وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله إذ أبقى أمر المسلمين في نصابه، وكتب بالخبر إلى مراكش وبعث بالبيعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبيين وحضر عامل البلد يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة وقائد الجيش السوسي بالقصبة أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد

الجراوي وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرىء كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بالأخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضى والرحمة، وبالنصر لهذا الذي اختاره الله لحماية الأمة، وكتب أهل مراكش بيعتهم من إنشاء أبي عبد اللّه أكنسوس وكذا الجيش السوسي وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدي محمد بمكناسة مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الإحسان ما غمرهم، وكان مما قيل في تهنئته بالملك قول أبي عبد اللّه أكنسوس:

وجوه الأماني حسنها متجدد ... ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب في كل القلوب بأنها ... مماليك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصي للهوى متعفف ... يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة ... مهفهف مستن الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلاً ... وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام ونهره ... نفوس ضعاف ليلهن مسهد
إذا الليل أضواها تكنفها الهوى ... وليس لها غير الكواعب منجد
وذي ظمأ بين الضلوع يجنه ... إلى رشفات للصبابة تبرد
تراءى له من منحنى الجزع برقه ... فظن بأن الجزع ثغر منضد
وتذكره تلك البروق مباسماً ... عليهن مرفض الجفان معقد
يراقب أسراب النجوم بمقلة ... تقسمها شطرين نسر وفرقد
ويهفو لأيام العقيق فتنثني ... مدامعه مثل العقيق تبدد
وهل يتناهى عهد من سكن اللوى ... إذا العيش غض والحبائب تسعد
وما زالت الأيام تغري بنا النوى ... وتنفي الذي نهواه عنا وتبعد
ولست أبالي للزمان صروفه ... وكهفي أمير المؤمنين محمد
خليفة رب العالمين بأرضه ... وصارمه الشاكي الشبات المهند
إمام تولى الله تشييد ملكه ... وناهيك ملكاً بالإلٰه يشيد
وصفوة هذا الخلق من آل هاشم ... وأعلى ذوي التيجان فخراً وأمجد

وأرحبهم في العز باعاً وفي العلى ... وأكثرهم في الفضل حظاً وأزيد
أتته عروس الملك عاشقة له ... وكم عاشق عنها يذاد ويطرد
وألقت على شوق إليه زمامها ... فطاب لها منه الجناب الممهد
فأصبحت الأيام تزهو بعدله ... وتنعم في ظل الهناء وتسعد
ففي بابه مأوى المكارم والندى ... وفي بابه الخيرات تولي وتوجد
ودولته للعز والنصر مألف ... وحضرته للأمن واليمن موعد
تذل ملوك العالمين لبأسه ... وتركع مهما أبصرته وتسجد
له راحة في الجود ما الغيث عندها ... وما البحر والدر النفيس المقلد
له أنعم تأوي إلى ظلها المنى ... وتسحب أذيال السماح وترفد
وعزم على الخيرات ليس بسامع ... مقالة من في المكرمات يزهد
ورأي ينير الخطب عند اعتكاره ... ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد
ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه ... محيا له وقت السعادة مولد
حيي كثير الابتسام مبارك ... يكبر ربي إن بدا ويوحد
أهز بهذا المدح منه معاطفاً ... تجر ذيول الفخر إن هو يحمد
له العسكر الجرار تبرق في الوغا ... صوارم منه والمدافع ترعد
يعد إلى الأعداء كل كتيبة ... من الرعد يحدوها الوشيح المسدد
وكل كمي كالغضنفر مغضباً ... وكل صقيل وهو ماض مجرد
يبذ العدا قبل اللقاء مهابة ... فصارمه يفري الطلى وهو مغمد
هو الملك المشهور بالحلم والدها ... وبالعلم والشهب الدراري تشهد
تشد لإدراك الغنى عند بابه ... ركائب أنضاها الدؤب المشدد
يحدث عنه الوفد عند صدوره ... أحاديث من بحر إذا البحر يزيد
إلى مجده آمالنا قد تطاولت ... وليس لها إلا حماه المؤيد
فيا ملكاً يحمي الرعية بأسه ... ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
يدبر فيهم كل يوم مصالحاً ... تعود بما يرضون والعود أحمد
ويشملهم بالعدل والفضل والندا ... ويصلح بالصمصام من هو مفسد
هنيئاً لك الملك الجديد فإنه ... يدوم بحمد الله وهو مسرمد

هنيئاً لنا نحن العبيد فإننا بسؤدد مولانا الإمام نسود
ودونك يا خير السلاطين كاعباً بديعة حسن للنهي تتودد
تدير كؤوس الراح دون تأثم إذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيراً كما اختير ما بين المعادن عسجد

وفي هذه الأيام ظهر المولى عبد الرحمٰن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالباً للملك قيل: إن بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة لما توفي السلطان رحمه الله كاتبوه واستحثوه للقدوم وواطأهم على ذلك بعض عبيد البخاري وبعض البربر الذين بأحواز مكناسة، ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي يومئذ يلي أمر شراقة بها، فقام في ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فكان ذلك سبباً في سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها، فرجع المولى عبد الرحمٰن بن سليمان عوده على بدئه وآيس من بلوغ قصده وأقام بزاوية العياشي عند البربر إلى أن اضمحل أمره، ولما قدم السلطان سيدي محمد رحمه الله من مراكش إلى مكناسة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء في الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف وبعد الزوال دخل في جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبا محمد عبد اللّه بن حسون والشيخ أبا العباس أحمد بن عاشر رضي الله عنهما، ودخل البستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص في الأرض إذا جرت من شدة ثقل المدافع فأشار بأن يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأتى جريانها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمه الله، وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكري الآن منها إلا بيتان وهما:

حوى العلويون المعالي كلها وما منهم إلا ذرى المجد صاعد
ولكن أمير المؤمنين محمد هو البدر في العلياء وهي الفراقد

انتقاض الصلح مع الإصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك

كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الإصبنيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبتة من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلاً للحراسة على المحدة التي بينهما، وكان النصارى يتخذون هنالك بيوتاً صغاراً من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصاً من البردى ونحوه، فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله بنى نصارى سبتة على المحدة بيتاً من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم إليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم: لا بد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة ببنائه وترجعوا إلى حالتكم الأولى من اتخاذ بيوت الخشب، فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة إلى ذلك البيت فهدموه وإلى تلك الكرونة فنجسوها بالعذرة وقتلوا منهم أناساً وضيقوا على أهل سبتة بالغارات حتى كانوا يصلون إلى السور، فرفع أهل سبتة أمرهم إلى كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد اللّه محمد ابن الحاج عبد اللّه الخطيب التطاوني وشكا إليه ما نال أهل سبتة من عيث اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال: لا بد من حضور اثني عشر رجلاً منهم بطنجة وسماهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء على فعلهم، فعظم الأمر على الخطيب وربما كلم في ذلك باشدور النجليز فقال له: أحضر هؤلاء المطلوبين على عين الأجناس وإذا حضروا وظهر حق الإصبنيول فأنا ضامن أن لا يصيبهم شيء، فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب إلى السلطان في شأن اثني عشر رجلاً منهم بأعيانهم فمشوا إلى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له: إن الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وإن كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا، ونحن جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه

هذا المهم، وفي أثناء هذه المدة توفي السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله وولي ابنه سيدي محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيدي الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لأنه عظم عليه أن يمكن العدو من اثني عشراً من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر الملأ من نواب الأجناس، ورأى رحمه الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي إلى الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر في القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنح إلى الصلح إلا إذا لم يجد عنه محيصاً، وكثر المتنصحون لدى السلطان وهونوا عليه أمر العدو جداً مع أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هيناً حقيراً فوصل الزبدي إلى طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه في القضية فوجد الخطيب جانحاً إلى السلم فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر إليه في النازلة، فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها، وآخر الأمر أن الزبدي انفصل مع نائب الإصبنيول على الحرب وذهب إلى حال سبيله وأزال الإصبنيول سنجقه من طنجة وركب إلى بلاده في الحين وكتب الزبدي إلى السلطان بالخبر، فكتب السلطان إلى الثغور يخبرهم بما عقده مع الإصبنيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد، وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد في تفريق المال والسلاح والكسي وقدم أولاً القائد المأمون الزراري إلى تطاوين في نحو مائة فارس وخمسمائة من رماة العسكر فرابطوا خارج تطاوين إلى جهة سبتة، ثم برز جيش الإصبنيول من سبتة في نحو عشرين ألفاً من العسكر في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف المحدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين وألف، فنهض إليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو

الخمسة آلاف وزحفوا إلى العدو وقاتلوه نحو نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لأن حربه كان زحفاً بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين، غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته في معسكره ولا من هزيمته لأنه كان يحصن على نفسه بأشبارات والمتارزات بخناشى الرمل وغيرها غاية التحصين، ثم بعث السلطان رحمه الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس في كتيبة من الخيل نحو الخمسمائة فارس فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة، ثم بعد أيام زحف إلى العدو فنزل بمدشر يقال له: البيوت باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام، ثم انتقل المسلمون إلى موضع آخر يعرف بأبي كدان خوفاً من كرة العدو ودهمه إياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوماً، ثم إن العدو اجتمع يوماً وتحمل بخيله ورجله وزحف إلى المسلمين فصدمهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدقوه اللقاء فردوه على عقبه، ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيدق لأنه كان هنالك فندق قديم، وكان العدو في تنقلاته هذه لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبه البحرية، وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأي على المولى العباس بأن يتأخر قليلاً لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش إلى موضع يعرف بمجاز الحصا فازداد طمع العدو في المسلمين وظهر له ضعف رأيهم في مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب، وكان قائد عسكر الإصبنيول يسمى أردنيل ووزيره المشير عليه يسمى بريم ورينتهم يومئذ إيسابيلا الثانية ثم عاد المسلمون إلى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون إليه وهو بالفنيدق فيقاتلونه من الصباح إلى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم، وفي أثناء هذ المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان رحمه الله بمكناسة فأعظموا أمر العدو

وتخوفوا معرته في مالهم وأولادهم لأنهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته فوعدهم السلطان رحمه الله بأن يمدهم ويحامي عنهم ولا يدخر عنهم شيئاً من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفي غيرهم، ثم إن العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرون أين هو قاصد، ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له: النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم، غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل إليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج إليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتى أنه كان إذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية، وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية، وكان شذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون على معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والنيران ويصبحون بها في تطاوين وغيرها، وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئاً مع أن ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الأرض ويتقدم به في نحر المسلمين. وهم يتأخرون والحاصل أن المسلمين لم يكونوا يقاتلونه على ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة إنما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدي سبا فإذا حان المساء تفرقوا إلى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبية، فكان قتالهم على هذا الوجه لا يجدي شيئاً، وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم، وكانت عنايته بما يستولي عليه من الأرض ويرى تقدمه إلى أمام وتأخر المسلمين بين يديه إلى خلف هزيمة عليهم.

وقد ذكر ابن خلدون في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال: «وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقتال الزحف أوثق وأشد

من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:4] اهـ ولا زال العدو هكذا يتنقل شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى وادي يعرف بوادي آسمير، وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمداً في ذلك حكماً نجومياً على ما قيل، فلما احتل بآسمير صادف ريحاً شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه فأفعمه وقطع عنه المادة من سبتة كما طلع أيضاً في وادي آسمير من أمامه فحبسه عن العبور، وصار العدو متوسطاً بين الوادين والبحر عن يساره، وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكليطة وهي خبزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع ببسيطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها، وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة، وبقوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة، ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاءه المدد، ولما رأى المسلمون أن العدو وصل إلى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بمدشر القلالين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة، ثم إن العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له: المضيق وكان متطوعة الأعراب في هذه المدة على قسمين: الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون: لولا أنه بين الجبال ومتحصن بالمتارزات لفعلنا وفعلنا، والآخرون يقول أحدهم: ما لي وللتقدم إلى هذه الشرشمة وإنما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم وأما أنا فحتى يصل إليّ بخيمتي في عبدة أو دكالة أو كلاماً هذا معناه كأنه يعتقد أنه لا تجب عليه نصرة المسلمين، نعم الذين قاتلوا قتالاً شديداً وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس، وطائفة من أهل زرهون، والبعض من آيت يمور وخصوصاً

الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فإنه أبدأ وأعاد وأتى بما لم يسمع إلا في زمان الصحابة رضي الله عنهم.

حكى من حضر وتواتر عنه أنه كان معلماً براية صفراء وكان يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتي من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بأرسانها ويأتي بها حتى يدفعها لمن بإزائه، وكان إذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله: تقدموا فأنا درقتكم وأنا سوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة، ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد إلى تطاوين فدخل بين جبلين وكان في انتهاء ذلك المضيق الذي بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم بالكور والضوبلي وهو يقرع طبوله حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله، ولما وصل إلى هذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبدأ أبو ريالة وأعاد في هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه، وكان يعتني به وينوه بقدره ويبعث الطبل يقرع على خبائه، وأصابته في هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير، قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة، وكان الظهور في ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يساراً إلى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاه كدار مرتيل التي هي الديوانة، وبمجرد وصوله إليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دوراً من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئناً وصارت المراكب تتردد له في البحر بالأقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج إليه حتى استراح ثلاثة عشر يوماً ولم يكن في هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو، وفي هذه الأيام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمٰن في جيش بعث به السلطان من مكناسة ونزل بموضع يقال له: فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلاً بمدشر القلالين بمحل مرتفع يشرف على ما حوله، ولما استراح العدو

وصلحت أحوال جيشه أنشب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحلتين فيقاتل ويرجع فكان بريم دائماً يكون في أول المقدمة على فرس أبيض مشهوراً عندهم موصوفاً بالشجاعة وجودة الرأي، ثم إن العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادي عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحاً من الخيل طالعاً مع الوادي إلى جهة المدينة وجناحاً من العسكر الرجالة طالعاً من الغابة إلى جهتها أيضاً، وزحف بعسكره شيئاً فشيئاً وهو في ذلك يرمي الكور والضوبلي والبغال تجر المدافع والجناحات ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد، ولما قربا منها وكاد ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الأخبية والأثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان في تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر في وسطها واضعاً منديلاً على عينيه وهو يبكي أسفاً على الدين وقلة ناصره، ولما استقر بالمحلة مع العشي خرج إليه أهل تطاوين وشكوا إليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأذنوا في تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم إلى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لئلا يفتنوا المسلمين ويجروا عليهم الهزيمة ولكي يقاتلوا عليها بالقلب والقالب، فلما كان هذا اليوم وشكوا إليه أمر العدو الذي قد أطل عليهم ولم يبق إلا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها في وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بفم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت في وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير، ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين إلى نقل أمتعتهم وقام الضجيج في المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب وخلع الناس جلباب الحياء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج،

وباتوا ليلتهم كذلك إلى الصباح، ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفساً وعظمت الفتنة وتخوف من بقي بتطاوين عاجزاً عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علّي آبعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتاباً إلى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها، فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا إليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذي أقدمكم فقالوا: جئنا بكتاب إلى أردنيل فأبلغوهم إليه فأظهر أيضاً البشر والفرح وقدم إليهم طعاماً من الحلواء وقال لهم في جملة كلامه: إني أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الإحسان. وكذب خذله الله فإن ذلك من حيله التي يستهوي بها الأغمار ويفسد بها الدين، وإلا فأي إحسان فعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان. ألسنا نرى دينهم قد ذهب، وأن الفساد قد عم فيهم وغلب، وأن ذراريهم قد نشؤوا على الزندقة والكفر إلا قليلاً، وعما قريب يلحق التالي بالمقدم، والله تعالى يحوط ملة الإسلام، ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الأصنام، ولما عرضوا على العدو الدخول إلى بلدهم قال لهم: أما اليوم فيوم الأحد وهو عيد النصارى ولا يحل لي التحرك والانتقال، وأما غداً فانظروني في الساعة العاشرة من النهار، فرجعوا إلى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوي يأكل الضعيف، وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك، ثم إن العدو استعد وأخذ أهبته وتقدم إلى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين: فرقة مرت مع أردنيل على الجبانة قاصدة الباب الذي يفضي إليها، وفرقة ذهبت مستعلية إلى جهة القصبة والبرج، ولما وصل أردنيل إلى الباب وصل الآخرون إلى القصبة، فأما أردنيل فوجد الباب مغلقاً وكلمه المسلمون من داخل المدينة فأمرهم

بالفتح فقالوا: إن المفاتيح قد ذهبت في الفتنة، فقال: اكسروا الأقفال فكسروها ودخل، ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو إلى دار المخزن فنزل بها، وافترق كبراء العسكر في المدينة بأيديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته، فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني وآخر يسأل عن دار اللبادي وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بأمره البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له، وأما الذين ذهبوا نحو القصبة فإنهم لما وصلوا إلى السور أنشبوا فيه سلاليم من قمن غلاظ برؤوسها مخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا في أعلى البرج رفعوا سنجقهم في أعلى الصاري وأخرجوا عليها مدفعاً، ولما سمع المشتغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم إلى البرج وبمجرد ما وقع بصرهم على بنديرة العدو تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعم الشارد فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وا أسفي على الدين وأهله، ولما استقر العدو بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنها وولى على المسلمين الحاج أحمد آبعير المذكور آنفاً، وكان دخوله إلى تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف، ورثاها الأديب الشريف السيد الفضل أفيلال بقصيدة يقول فيها:

يا دهر قل لي على مه	كسرت جمع السلامة
نصبته للدواهي	ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام	للرفع كان علامه
ملكته لأعاد	ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع	يحكيه صوب الغمامة
على مساجد أضحت	تباع فيها المدامة
كم من ضريح ولي	تلوح منه الكرامة
علق فيه رهيب	صليبه ولجامه
ومنزل لشريف	وعالم ذي استقامة

صار كنيفاً لعلج ... ولم يراع احترامه
وكم وكم من أمور ... للدين فيها اهتضامه
تبكي عليها عيون ... كآبة وندامة
تطوان ما كنت إلا ... بين البلاد حمامة
أو كخطيب تردى ... من بعد لبس العمامة
بل كنت روضاً بهيجاً ... زهرك أبدى ابتسامه
أو كمحيا عروس ... علاه في الخد شامة
فقت بهاء وحسناً ... فاساً ومصر وشامه
رماك بالعين دهر ... ولا كزرق اليمامة
ففرق الأهل حتى ... لم يبق إلا ارتسامه
ما كان أحلى زماناً ... وما ألذ غرامه
مضى لنا مع بدور ... ذوي نهى وفخامه
ما بين إنشاد شعر ... وبين إنشا مقامه
وشملنا في التئام ... والبسيط يهوى التئامه
حن السرور إليه ... شوقاً ورام التشامه
ساعده السعد حتى ... نال المنى ومرامه
يا حسنها من ليالٍ ... لو لم تصر كالمنامة
تطوان يا دار أنس ... وخيس أهل الزعامة
هل للوصال سبيل ... فالهجر أكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقاً ... وحسرة واستهامة
والوجد أضعف جسماً ... وكاد يبري عظامه
يا أهل تطوان صبراً ... فما لخطب أدامه
دوام حال محال ... وهل لظل إقامة؟
إن غاب نجم سعود ... ولاح نجم شآمة
فسوف يطلع بدر ... يمحو سناه ظلامه
فاعتصموا برجاء ... وارعوا بصدق ذمامه

وحسنوا الظن تنجوا ... دنيا ويوم القيامة
وفوضوا الأمر لله ... يكف عنا انتقامه
ما فاز إلا ذكي ... قدم خيراً أمامه
حيث أقامه يرضى ... ولو بقصر كتامة
ولا يزل ذا انتظار ... في كل وقت ختامه
يراقب الله سرّاً ... وجهرة باستدامه
يطلب حسن ختام ... وحل دار المقامة

ثم إن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد إلى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفاً للبلد شرقاً وغرباً، واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقي هو خارجاً بإحدى المحلتين قال: إن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفاً كلها مقاتلة في غاية الاستعداد وكمال الشوكة، ثم أمر بالنداء في البلد أن من أوقد ناراً تلزمه العقوبة الشديدة حذراً من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها فبقي الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يوقدوا فيها ناراً، ونادى أيضاً بأن من فر من أهل البلد ولم يأت إلى متاعه وأصله إلى سبعة أيام فلا شيء له بعد، ولم يقدم شيئاً على نقل البارود والمدفع الذي كان للمسلمين بالمدينة، فأما المدفع فحمله إلى أصبانيا وأما البارود فجعله بضريح ولي الله تعالى سيدي السعيدي، وكذا فعل بجميع آلات الجهاد، ثم عمد إلى ضريح سيدي عبد اللّه البقال فجعله كنيسة، وجعل مسجد الباشا مختزناً للأرز والشعير، ومسجد القصبة مختزناً للكليط، ثم سار في المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفاً ولا كلفهم شغلاً ولا اقتضى منهم مغرماً، كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيئاً أضعف له في الثمن وأربحه، وكذا فعل مع أهل المداشر الذين حول البلد حتى اتخذ الناس سوقاً بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره في قبائل الجبل فانهاروا عليه من كل جانب وربحت الناس فيه، ثم كتب أردنيل كتباً وبعث بها إلى قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم إن هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم إن لم يفعلوا فقدموا من كل أوب وارتفعت الأسعار

فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلم ترجع بعد، ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى في مدنهم، فهدم ما لم يوافق نظره وفرز الدور من سور البلد، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه، واستمر على هذا الحال نحو العشرين يوماً، ثم دار الكلام بينه وبين المولى العباس في الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معاً، أما المسلمون فوجه فرحهم ظاهر، وأما النصارى فإنهم وإن كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلاً بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:104] هذا إلى مفارقة بلادهم التي ألفوها وعوائدهم التي ربوا عليها لا سيما عامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم، فدماؤهم هي ثمنها كما قيل: بجبهة العير يفد حافر الفرس.

حكى من حضر أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين وصاروا يترددون إليهم ويبحثونهم عما تجدد من الأخبار، وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحاً وذلك لأن قتال النصارى كله على الإكراه إذ لا يمكن عسكرياً منهم أن يفر من الزحف حال القتال لأن الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم إلى الإمام ومهما رجع أحد منهم إلى خلف وترك في الصف فرجة ضربت عنقه في الحين، فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقدم مظنون، فيختارون المظنون على المحقق، اللّهم إلا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة، ومن عادة العدو في الحرب أنه إذا نهض للقتال ارتحل بجميع ما في عسكره كأنه مسافر، فترى العسكري منهم إذا تقدم للقتال حاملاً معه جميع ما يحتاج إليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك، قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافاً وعلقها عليه فلا يؤده حملها لأنه اقتصر من كل على

قدر الحاجة، وأما الأخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة في حمله لأن أخبيتهم في غاية اللطافة والصفافة، وأعمدتها لطاف صلبة فهي مع كفايتها على الوجه الأتم في غاية الخفة بحيث إذا لف الخباء بما فيه كان كلا شيء، ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة في الرفق ولئلا يحصل الضجر إذا طال السفر، وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفراغاً وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالاً خصية تجرها في غاية الفراهة والارتياض، ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورصاص وضوبلي وغير ذلك، وتجلس الطبجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قد أخذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن، ثم تندفع العساكر على هذا الترتيب صفوفاً صفوفاً وتتقدم شيئاً فشيئاً يخلف بعضها بعضاً كأنها أمواج البحر تبرق الشمس على طموس رؤوسها وتلمع على عددها المصقولة وآلاتها، وهو في هذه الحالة لا يفتر من رمي الكور والضوبلي والشرشم على كل جهة هكذا قتاله أبداً، وإذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال إلا إذا فني كل عسكره أو جله، فبمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور، وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة وإنما قاتله من قاتله منهم باختياره ومن قبل نفسه، وإن كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط، ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النور:62] لكن المقاتل من المسلمين يأتي القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فبالضرورة إذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه، ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية بل يتفرقون في الشعاب ومخارم الأودية وحول الأشجار فيقاتلون من ورائها وإذا دفعوا في نحر العدو دفعوا زرافات ووحداناً، ثم إذا أدركهم المساء ووقعت المحاجزة ذهب كل إلى خبائه الذي تركه وراءه بمسافة بعيدة

وهم في هذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يراد منهم.

فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيئاً، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الأمير وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن السلطان المولى سليمان في وقعة ظيان أولاً وفي وقعة الشراردة ثانياً، وكان السلطان المولى عبد الرحمٰن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمٰن وقعة إيسلي جاؤوا بها شنعاء غريبة في القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلهم، وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب فإنهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم، إذ الشيء كما علمت إنما يقاوم بمثله، والشر إنما يدفع بضده، فالتنافي إنما يحصل بين الضدين أو المثلين وحربنا وحرب الإصبنيول كان من باب الخلافين ولا تنافي بين الخلافين كما هو مقرر في علم الحكمة، والتوفيق إنما هو بيد الله.

ولنرجع إلى الكلام على الصلح المتناول فنقول: لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل في الصلح استعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوي بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد اللّه الخطيب التطاوني، وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الحاج أحمد آبعير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الأميرين فيفوز بذكر ذلك الجمع وفخره فأخفق رجاؤه لأنه لما توافى الجمعان إلى الخباء بقي الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله إلا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل، وأبدى أردنيل من

الأدب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس أن حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها، وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدي محمد وذهب كل إلى سبيله، وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شيء يأتي من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح، فاستمر الناس على حالتهم الأولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجها شرقاً وغرباً ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم، ثم إن المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا إليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وفتكوا فيهم فتكة بكراً باتوا يقتلونهم الليل كله، ومن الغد كذلك إلى المساء، وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضاً ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس العدو باستنادهم إلى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة، وكان عدد القتلى من النصارى في هذه الوقعة نحو الخمسمائة والجرحى أكثر من ألف، وأما المسلمون، فكان القتل فيهم ضعيفاً، ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لأهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة التي كان يعاملهم بها بالغلظة والبشاشة بالاكفهرار، وعمد إلى مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة رحمه الله فاتخذه مارستاناً للجرحى فظلت الجرحى تنقل إليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئاً كثيراً فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه، وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحداً من المسلمين عيروه بالغدر وقبحوه، ثم إن أردنيل أقام بعد هذه الوقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلت جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين

خلفه وتقدم حتى كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا إليه من كل جانب ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة جاؤوا في حرد كبير وحنق شديد فقويت قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا إلى العدو فأنشبوا معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل إلى محلة المسلمين وكثروه فأوقعوا به وقعة أنست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر، وأما الجرحى فقل ما شئت، وكست قتلاه الأرض، ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية إلى العشرة ويهيل عليها التراب، ومع ذلك بقي منه عدد كبير بلا دفن حتى أنتن موضع المعركة من شدة نتن الجيف، ونال المسلمون من عدوهم في هذا اليوم ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه، وكان الذكر فيه لعرب الحياينة ثم للمتطوعة غيرهم، وأما محلة المولى العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة.

وقد ذكر منويل خبر هذا اليوم: فأقر بأنه أهرق منهم دم كثير وخسروا فيه عدداً كبيراً من نفوس العسكر والخيل، ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره، ورأى أن المسلمين وإن نالوا من العدو في هذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الثمرة ضعيفة من جهة أن نكايتنا له إنما هي في القتل والجرح ونكايته في أخذ الأرض والاستيلاء عليها كما قلنا غير مرة فجنح رحمه الله إلى الصلح واختاره على الحرب حتى تدور للمسلمين سعود إن شاء الله.

أخبرني صاحبنا القائد الأجل أبو عبد اللّه محمد بن إدريس بن حمان الجراري حفظه الله قال: لما طالت الحرب بين المسلمين والنصارى على تطاوين استدعاني السلطان وسيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله وأعطاني ستين ألف مثقال أذهب بها إلى جيش المسلمين المرابط على تطاوين بقصد المؤنة والصائر. وقال لي مع ذلك: إذا وصلت إلى محلة المسلمين فانظر

حالهم وتبصر في جميع أمورهم وما هم عليه في قتال عدوهم من الضبط وعدمه، وهل هم مكفيون في جميع ما تدعو الحاجة إليه أم لا؟ واستوعب ذلك وائتني بالأمر على وجهه، قال: فذهبت فوصلت إلى المحلة يوم الخميس وفي صبيحة اليوم الذي يليه كان حرب أبي صفيحة فجاء النذير إلى المولى العباس وأخبره بأن المسلمين الآن يقاتلون العدو، قال: فركبت في جماعة من الناس وذهبت لأنظر حال المسلمين وحال عدوهم كما أمرني السلطان رحمه الله فوصلت إلى مقاتلة المسلمين فإذا هم يرتادون موضعاً ينزلون به أثقالهم ويضربون به أخبيتهم ليتفرغوا لقتال عدوهم، فإذا هم عزموا على النزول بوادي آكراز فأجهضهم العدو عنه بالرمي بالكور والضوبلي وهو متقدم أمام لا يثنيه شيء فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به على أخبيتهم وأثاثهم، ثم تقدموا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ردوه على عقبه بالموضع المعروف بآمصال مرتين أو ثلاثاً، وقتلوا منه ما جاوز الحصر، وفي ذلك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم بن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي آكراز الذي كان المسلمون أرادوا أن ينزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنيديق وتفرق جل متطوعتها كل إلى حال سبيله على عادتهم وكان الوقت وقت شتاء وبرد غاية قال: فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبح العدو مقيماً والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يعاجلوه بوقعة أخرى ويلحوا عليه كي يكسروا شوكته ويهضموا ما دام متألماً ولا يتركوه حتى يجم ويستريح، لكنهم لم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن كل من الأميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجنحوا إليه لأنهم كانوا معاً قد سئموا الحرب وملوا القتال، ثم من الغد وهو يوم الأحد تداعوا للاجتماع بعد أن نهض العدو من محله الذي كان نازلاً به واجتمع وانكمش وأظهر القوة بالتهيىء للحرب والتعبئة للقتال حتى أنه إذا كان صلح فذاك وإلا فالقتال، فعل ذلك مكيدة، والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش

وتدنى أردنيل في جماعة من أصحابه كذلك بعد أن أمر بضرب خباء صغير يجتمعان به، وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس وإظهاراً للأدب معه فتلاقى به وعادا إلى الخباء وحضر معهم الترجمان ورجلان آخران وأبرموا الصلح وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل إلى محله، وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والإصبنيول، ولما وصل الخبر بانعقاد الصلح إلى عسكر النصارى فرحوا فرحاً لم يعهد مثله وجعلوا ينادون الباص الباص أي الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بها أصواتهم وكلما لقوا مسلماً هشوا له كأنهم يهنئونه بالصلح، وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والإصبنيول على شروط منها أن يدفع السلطان إليهم عشرين مليوناً من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الأرض التي بينها وبين سبتة إلا شيئاً يسيراً يزاد لهم في المحدة على سبيل التوسعة، وكان انعقاد هذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وتراخى السلطان رحمه الله في دفع هذا المال فاستمر العدو مقيماً بتطاوين حتى يستوفيه، وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيها العدو من مستفاد مراسي المغرب فأقام أمناءه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الآن بهذا الحال والله تعالى يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر، وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلم النصارى تطاوين إلى المسلمين وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف بعد أن مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً، ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم، وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب وكان إحداثه إياه في دولة أبيه رحمه الله بعد رجوعه

من وقعة إيسلي مع الفرنسيس، ثم جد فيه في هذه الأيام فجمع منه ما تيسر جمعه، ثم رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب في ذلك كتباً للآفاق، فمما كتبه لأمناء مرسى الدار البيضاء في ذلك ما نصه: وبعد فإنا لما أخذنا في جمع النظام للمصلحة المتعينة، الواضحة البينة، المقر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير، واختبرنا ما صير عليه في شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير، فكيف أن جمعنا منه عدداً معتبراً يحصل به المراد، ويكون قذى في أعين أهل العناد، اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم، إذ لا بد من كفايتهم، وإلا انحل نظام جمعهم، وفي ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة في الدين، فأشاروا بفرض إعانة لا ضرر فيها على الرعية وسطروها في ورقة وهي كل شيء بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية، وللضرورة أحكام تخصها كما هو معلوم مقرر، ومسطر في غير ما ديوان محرر، ثم اقتضى نظرنا أن نسند الأمر في ذلك لأهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريراً تنشرح له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور، وإن كان جلهم يعلم هذا إذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها إلا بجند قوي بالله ولا جند إلا بمال وهو لا يكون إلا من الرعية على وجه لا ضرر فيه، وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين ومراكش في ذلك، وسلكوا في ترتيبه أحسن المسالك، ولا نشك أن بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، فبوصول هذا إليكم قوموا على ساق الجد في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار إليها ولا دخل للنصارى في ذلك، والله أسأل أن يبارك للمسلمين في مالهم ويعوضهم خلفاً آمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، وإذ انجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بد من تتميم الفائدة بذكر كلام نافع.

القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه

اعلم أنه واجب على الإمام حماية بيضة الإسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه في الدين والدنيا، ولا يمكنه ذلك إلا بجند قوي وشوكة تامة بحيث تكون يده غالبة على الكافة وقاهرة لهم، فاتخاذ الجند إذاً واجب وعليه فيندب له أن يتخذ لهم ديواناً يجمع أسماءهم ويحصي عددهم ليحصل الضبط وينتفي اللبس، وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أمر عقيل بن أبي طالب ومخزمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ فما بعدها الأقرب فالأقرب، فهكذا ينبغي للإمام أن يرتب جنوده في ديوان يحفظها ودستور يجمعها، ثم ينبغي أن يكون عنده أولاً ديوان كبير هو الأم يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة والعامة، ثم يجعل دواوين صغاراً يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الإمام الذي يلازمه حضراً وسفراً وعساكر الثغور والقلاع ونحو ذلك، وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتي، وكل ديوان منها يشتمل على أرحاء مثلاً وكل رحى على مئين وكل مائة بضباطها وطبيبها وعالمها الذي يعلمها أمر دينها وغير ذلك.

قال صاحب مصباح الساري ما ملخصه: كانت الدولة العثمانية في أول أمرها إذا استخدمت طائفة من الجند بقيت في الخدمة طول عمرها ولما كان هذا الأمر صعباً يعني وغير مقتض للتسوية بين الرعية في هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملوا القرعة بين أبناء الرعايا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمه من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب إلى حال سبيله لطلب معيشته، فذو الحرفة يرجع إلى حرفته

والتاجر إلى تجارته وهكذا، ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جنداً قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتاجت إلى ذلك، ثم من استوفى مدة خدمته بقي معدوداً في صنف الرديف سبع سنين أخرى، ومعنى الرديف أنهم يكونون عدة للدولة متى احتاجت إليهم في نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكون بين الأجناس، فإذا انسلخت السبع سنين فهو حر دائماً وأبداً فلا يضرب عليه بعث، ولا يكلف بغزو إلا أن يشاء، فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة، وشرط المستخدمين في العسكر أن يكونوا في سن العشرين إلى خمس وعشرين سنة، فمن زاد على ذلك أو نقص لا تقبله الدولة لينضبط الأمر، وإن اصطلح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس، فإذا أريد إعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو في ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالهما في يوم معلوم من السنة لا يتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضي والشهود وتكتب بطائق على عدد رؤوس الحاضرين فلان بن فلان الفلاني سنة كذا فإذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلاً أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى نستوفي الخمسين ثم نفتحها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكري في تلك المدة، ومن أخطأته القرعة ذهب إلى حال سبيله، لكنه إن جاوز سن العسكرية الذي هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو في صنف الرديف إلى سبع سنين كما قلنا، والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا في الديوان يرخص لهم في الذهاب إلى محالهم عشرين يوماً لقضاء أوطارهم ثم يحضرون بعدها إلى القشلة، ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت في الديوان بلا قرعة، ويسقط من أصل العدد المطلوب، ولا تقبل فيه شفاعة ولا فداء، ومن ليس له إلا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولا كافي له سواه فإنه يسرح له لئلا يضيع لكن بعد حضور الجمع وإثبات ما ادعاه، ومن له ولدان وأصابتهما معاً القرعة فيمسك واحد ويسرح له الآخر، ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهم ثلاثة

فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقي، ويعفى عن كل من كان مفرداً في بيته وعن كل أعور وأشل وأعرج وأحدب، وعن كل مبتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لا يقدر على الأعمال الجندية وغير سالم المزاج وهكذا، ويعفى عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابته خلى سبيله لأنه قد قام بوظيف هو من أهم الوظائف ومن كان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لا ترجى فائدته وإنما تستر بطلب العلم دخل في القرعة، وإذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعة أحدهما وأراد إبداله بالآخر فذلك له إذا توفرت فيه شروط الخدمة، وإذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجير فلا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يجحف به ولا يؤدي إلى تعطيل تجارته ولا بيع أصله، ولهذا البدل شروط: الأول أن يكون سالماً من الآفات المتقدمة، الثاني أن لا يكون ممن استوفى مدة الخدمة التي هي خمس سنين ودخل في صنف الرديف اللّهم إلا إذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار في صنف الرديف فهذا يقبل، الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشي عن فاسي مثلاً وبالعكس، الرابع أن لا يكون من العبيد السود اللّهم إلا إذا كان في الجند صنف منهم فيقبل في صنفه ولا بأس إذا كان مملوكاً أبيض، الخامس أن لا يكون من الذين استعملوا في الجندية وأخرجوا منها لعارض خلقي أو خلقي مثل آفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها، السادس أن لا يكون البدل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم إذا فر البدل فينتظر مجيئه إلى شهر فإن جاء وإلا أخذ به صاحبه الذي جاء به، ثم إذا انتظم هذا الجمع العسكري فأول ما يعلمونهم أمر دينهم مما لا بد منه على سبيل الاختصار بأن يلقنوا كيفية اللفظ بالشهادتين ويبين لهم معناها بوجه إجمالي، فإن جل العوام سيما أهل البادية والقرى النائية لا يفقهون ضروريات دينهم، ويعلمون كيفية الوضوء والصلاة ويلزمون بالمحافظة عليها حتى أن من لم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقاباً شديداً وإلا فلم يحضر عند سماعه الطرنبيطة ولا يحضر إذا سمع داعي الله فهذا أول ما يتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم في حماية

المسلمين، فإنا لم نرد بجمع هذا الجند إلا حفظ الدين فإذا كان الجند مضيعاً له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه، ثم بعد هذا يعلمون الأمور التي تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياء والحشمة والإيثار وترك الكلام الفحش وتوفير الكبير ورحمة الصغير ويلقنون أن من أفضل الحصال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه، ويقال له مثلاً: إذا كان العجمي الزنديق يغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربي المؤمن لدينه ودولته ووطنه، ولا بد من ترتيب مجلس يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه ومغازي الخلفاء الراشدين وسلف الأمة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل: «كتاب الأكفاء» لأبي الربيع الكلاعي، وكتاب ابن النحاس في الجهاد، وكتاب «سراج الملوك»، ونحوها، فإن ذلك مما يقوي إيمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم في الدين وأهله، وينبهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الأوساخ والأوضار التي تدل على دناءة الهمة ونقصان الإنسانية وعدم النخوة، ويلزمون بترك استعمال الدخان فإنه مناف لنظافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة، ثم إذا رسخت فيهم هذه الآداب في ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا في تعلم الثقافة وأمور الحرب، ثم من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسكلوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك، فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجماً متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الأذن، فيجب على معلمهم في حالة تعليمه إياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمي إلى العربي ويعبر عن الألفاظ العجمية بالعربية، وإن كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم فليجتهد

المعلم الحاذق في تعريبه وليس ذلك بعسير على من وفقه الله إليه، وليس فيه إلا إبدال لفظ عجمي بلفظ عربي بأن يقول مثلاً: أمام، خلف، دائرة، نصف دائرة، وهكذا، فإذا مرنوا عليه شهراً أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لأن تلك هي لغتهم التي فيها نشأوا وعليها ربوا، فالعمل عجمي والكلام الذي ينبهون به على ذلك العمل عربي فأي كلفة في هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهي عنه شرعاً، فإن التزيي بزيهم لا يأتي بخير أبداً وهو والله من أفسد الأشياء للدين الذي نريد أن نحوطه بهم.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله، ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذي به حياته هو الكفاية في المطعم والملبس، وليختر لهم من الأغذية أطيبها وأنفعها للبدن، وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف، وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصلحها هواء وأبعدها عن محل الوخم، وليلزمهم بالاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبريدها وتطييبها حتى لا ينشأ عنها داء، وإذا تراخوا في مثل ذلك عوقبوا عليه لأنه دال على دناءة الهمة ودنيء الهمة لا يأتي منه شيء، وليرتب لهم الأطباء العارفون حتى إذا أصاب أحداً منهم مرض عالجه الطبيب في الحال، فإن هذا الجند هو سور الإسلام وسياج الدين فبحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم، فإذا اتخذ الجند على هذه الكيفية التي ذكرنا سهل على الناس الدخول في الجندية وتنافسوا فيها، ومن كان عنده من الرعية درهم طابت نفسه بأن يقتسمه معهم ويكون الجند حينئذ في مرتبة هي أشرف من مرتبة الرعية بكثير لأن الجند يحفظهم والرعية تكسب وتبذل لهم، ثم إذا ظهر من آحاد الجند نجابة أو شجاعة أو نصيحة في الخدمة السلطانية رفع قدره ونوه باسمه ليغتبط هو بمنزلته ويزداد في خدمته ويغبطه غيره وينافسه في خصاله التي أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل، والله الهادي إلى التوفيق بمنّه ولنرجع إلى التاريخ فنقول:

وفي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر

من ذي القعدة منها توفي والدنا الفقيه المرابط الأخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصري بقبيلة سفيان، ودفن بتربة الشيخ أبي سلهام رضي الله عنه، وكان رحمه الله من الورع والتحري في أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه في ذلك، وكان ديناً وقوراً كثير الأوراد ذا صمت وجد، وله إلمام بالفقه والسيرة النبوية مرجو البركة عند العامة رحمنا الله وإياه والمسلمين.

ثورة الجيلاني الروكي ومقتله

كان الجيلاني الروكي من عرب سفيان رجلاً خامل الذكر ساقط القدر حرفته رعي البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البادية، فوكل به جني أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم إلى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثي السفياني في أخلاط من الأوباش بالعصي والمقاليع فحاصر القائد المذكور في داره من الظهر إلى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوه وقتلوا جماعة من إخوته وبني عمه ونهبوا ما وجدوا بداره وكان شيئاً كثيراً من المال والأثاث، وبقي أولئك القتلى مصرعين بفناء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتتنت العامة بهذا الروكي ونسبوا له الخوارق والكرامات من غير استناد إلى دليل ووعدهم بأنه يستولي على الملك ويحكم المتمسكين بدعوته في الأموال كيف شاؤوا، وضاعت نفوس في تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعى بالهمل، وكنت حاضراً لهذا الخطب العظيم فكان من افتتان العامة بهذا المعتوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب في أمره ما لا يكاد يصدق به إذا حكي، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله يومئذ برباط الفتح فاهتز لهذا الخطب لأن الشيطان كان قد نفخ في أباطيل الروكي وشاعت في العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار، ثم إن السلطان رحمه الله أغراه أخاه المولى الرشيد، فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بأنه سينصر عليه وأن خيل السلطان

تكون غنيمة له وقال لهم: اتخذوا الشكائم أي الأرسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان، فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والأرسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظاراً لوعده، ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان، ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الأربعاء من بلاد سفيان جعل الشكائمية يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالأودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم، فأعلم المولى الرشيد بمكانهم فبعث الخيل فالتقطوهم في ساعة واحدة ولم يفلت منهم إلا القليل وسيقوا إلى رباط الفتح فسجنوا به مدة، وأما الروكي فإنه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الأشراف الأدارسة والعلويين وغلقوا أبواب القبة وتقدم إليه شريف علوي ففتك فيه وأراح الناس من شره واحتزوا رأسه ويده وحملوهما إلى السلطان فبعث بهما إلى مراكش فعلقا بجامع الفناء مدة، وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته وبقوا ينتظرون رجعته سنتين أو ثلاثاً ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33] وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدته أربعين يوماً، وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه: وبعد فإن فتاناً من سفيان مرق من الدين وفتن بأمور شيطنته من اغتر به من المسلمين، وجمع عليه أوباشاً من أمثاله وأضرابه وأشكاله، وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشراردة فقاتلوه ثم تقدم بهم لزاوية مولانا إدريس فقاتله أهلها قتالاً يرضي الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقوا الأبواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وأنصاره وأشياعه، فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلاسل والأغلال، ونحن على نية إقامة الحد عليهم إن شاء الله جزاء وفاقاً على ما ارتكبوه من الفساد وقبيح الأعمال، ومن كان منهم حينئذ خارجاً عن الباب تخطفته الأيدي، وجنوا ثمار ما سعوا فيه من البغي والتعدي، وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده وما كل نعمة إلا

من عنده، وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة إذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام، في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله بعرب الرحامنة

لما كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله ببلاد الغرب مشتغلاً بأمر الإصبنيول وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المارة وأرباب الجنات وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة، فانقطعت السبل وارتفعت الأسعار وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار واحتطبوها، وحصدوا الزروع في الفدن واغتصبوها، واشتد الحصار وتخاذلت الأنصار ودام الحال إلى أن فرغ السلطان رحمه الله من حرب الإصبنيول وفتنة الروكي فوجه وجهته إلى مراكش، فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربة فانحازوا إلى ناحية الرميلة والأودية وزاوية ابن ساسي ليحولوا بينه وبين الدخول إلى مراكش فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة إلى مراكش مقرنين في الحبال حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أنه رحمه الله كف أيدي الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والأودية وهي من أخصب البلاد وأزكاها، وكتب السلطان في هذه الوقعة لأخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بن الافتتاح والخطاب، وبداخل الخاتم: محمد بن عبد الرحمٰن غفر الله له، وبدائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأسد في آجامها تجم

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:88] وبأركان الخاتم: الله

محمد أبو بكر عمر عثمان علي ونص الافتتاح: الحمد لله الذي تدارك الأمة باللطف الكفيل بتمهيد أقطارها وتيسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين نصروا الدين بالصفاح والأسنة، وأوضحوا أحكام السنة، أخانا الأعز الأرضى مولاي الرشيد أصلحك الله وأعانك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما تواترت الأنباء المحققة بعد التباسها وتواردت الأخبار التي يغني نصها عن قياسها بما ارتكبه ظالموا أنفسهم الرحامنة من أنواع الفساد التي أذاعوها وأظهروها وأشاعوها، وقد كانت في صدورهم كامنة، صرفنا الوجهة إليهم وطوينا المراحل من أجلهم، ولما حللنا ببلادهم أرسلنا عليهم سيل العرم من العساكر المنصورة والجيوش الموفورة، فما كان غير بعيد حتى أتوا برؤوس منهم كثيرة محمولة على أسنة الرماح، وأسارى من مقاتلتهم مجردين من الثياب والسلاح، ومن نجى منهم رجع مجرداً إلا من خيبة سعيه، وما سقي إلا بكأس بغيه، واستولت العساكر والأجناد على جميع ما كان عند أهل الفساد، ومن المعلوم أن من سل سيف البغي يعود إلى نحره، ومن ركب متن الشقاق يغرق في بحره، وأن الفتنة نار تحرق من أوقدها، والمخالفة صفقة تعود بالخسارة على من عقدها، ولما أردنا معاودتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقي من رماد أثرهم تعلقوا بالمرابطين من ذوي الوجاهات، وأكثروا من الذبائح على المحال وتوجيه العارات، وقاموا بواجب السمع والطاعة في كل ما أمرناهم به جهد الاستطاعة، فأبقينا عليهم وإن عادت العقرب عدنا بحول الله لها وكانت النعل لها حاضرة، فالحمد لله الذي خيب آمالهم وأبطل أعمالهم وخذل أنصارهم، وأركد أعمارهم لما أعمى أبصارهم، وردهم ناكصين على الأعقاب بعد سلب الأموال وقطع الرقاب، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:13]، ونعوذ بالله من الآراء المعكوسة والحظوظ المنكوسة، وسوء الفعل الذي يورد المهالك، والحرمان الذي يجعل البصير كالأعمى في دجنة الليل الحالك، هذا ويصلكم ما قطع من رؤوس قتلاهم لتتعلق بباب المدينة ويعتبر بها المعتبرون، ويتذكر بها

المتذكرون، والله أسأل أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأن يكون لنا وللمسلمين بما كان لأوليائه وأحبائه وأصفيائه، وأن يوفقنا وإياهم لما يحبه ويرضاه، ويختم للجميع بخير والسلام، في ذي الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه: وأن علقت يوماً واحداً فادفعها لحملتها ولا بد ليتوجهوا بها إلى مكناسة صح به اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف سافر شيخنا الفقيه العلامة البارع أبو عبد اللّه محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فوافته منيته بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة، وكان رحمه الله واعية دراكة نفاعة كثير الدرس والتقييد والنسخ للكتب المعتبرة فصيح العبارة حسن النغمة والصوت عارفاً بالحديث دؤوباً على سرده عارفاً بالنحو والفقه وعلوم الآلة، لازمناه وانتفعنا به وعادت علينا بركاته رحمه الله ونفعنا به، وكنت رثيته بقصيدة ذهبت في جملة ما ذهب من شعري إذ لم يكن لي اعتناء بتقييده ومطلعها:

ملازمة التذكار تذهب باللب   وتغري قديم الوجد بالهائم الصب

وفي سنة ثمانين ومائتين وألف وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هدة البارود بمراكش وذلك أنه كان بجامع الفناء منها فندق في بعض بيوته نحو أربعمائة قنطار من البارود وبه أيضاً شيء من فحم الريش المتخذ للبارود فوقعت فيه نار وسرت منه إلى البارود فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق بما فيه، وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة فمنهم من لم يوجد أصلاً ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك، وتهدمت كل دار كانت متلاشية بمراكش وانخلعت الأقفال من الأبواب وصرصرت السقوف والحيطان وكان الحادث عظيماً، وفي هذه السنة ورد يهودي من اللوندرة على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لأنه

لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبهاً بيهود مصر ونحوها فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشابيل وكان هذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجاهة كبيرة في دولة النجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسلفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون إليه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله في الإنعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودي صهراً له للوفادة على السلطان رحمه الله في هذا الغرض وفي غيره وأصحبه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضه ففعلوا، وقدم على السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخفقاً وأعطاه ظهيراً فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى، ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقرراً ومعروفاً محرراً لكن زدنا هذا المسطور تقريراً وتأكيداً

ووعيداً في حق من يريد ظلمهم، وتشديداً ليزيد اليهود أمناً إلى أمنهم، ومن يريد التعدي عليهم خوفاً إلى خوفهم، صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف، ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخاً وفرقوها في جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطيش وأرادوا أن يختصوا في الأحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسي فإنهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم على أن السلطان رحمه الله لما أحس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وأن ذلك الإيصاء إنما هو في حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم، وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقونه من الأدب.

واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعاً لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية رأساً، أما إسقاطها لحقوق الله فإن الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعاً حدوداً معلومة والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفى، وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم خذلهم الله يقولون: إن الولد الحدث إذا وصل إلى حد البلوغ والبنت البكر إذا بلغت سن العشرين مثلاً يفعلان بأنفسهما ما شاءا ولا كلام للوالدين فضلاً عن الأقارب فضلاً عن الحاكم ونحن نعلم أن الأب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروءة وتزري بالعرض سيما إذا كان من ذوي البيوتات، فارتكاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور، وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان، وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الأمور بل يبيح للإنسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الإنسانية من التظاهر بالفحش والزنى وغير ذلك إن شاء لأنه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا فرق بينه وبين البهيمة

المرسلة إلا في شيء واحد هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه، وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه، وهذا واضح البطلان لأن الله تعالى حكيم وما ميز الإنسان بالعقل إلا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله في العقبى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72] الآية.

واعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله ﷺ لأمته وحررها الفقهاء رضي الله عنهم في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف كمل بناء الدار الفيحاء التي أنشأها السلطان سيدي محمد رحمه الله بآجدال من ظاهر رباط الفتح بجوار ضريح جده سيدي محمد بن عبد اللّه وهي دار كبيرة حسنة البناء واسعة المقاعد والفناء يقال إنها من أخوات بديع المنصور، ولما كمل بناؤها أمر السلطان رحمه الله أن يختم فيها فقهاء رباط الفتح صحيح البخاري أولاً وفقهاء سلا ثانياً فدخلناها في جملتهم وتقصينا منازلها ومقاعدها فرأينا ما ملأ أبصارنا حسناً وإتقاناً وعجيب صنعة.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف حدثت فتنة بفاس وذلك أن الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين خامس ربيع الأول وكان فيهم التاجر الأمجد أبو عبد اللّه حبيب بن هاشم بن جلون الفاسي فلما سجد مع الناس شدخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد ثم انحنى عليه بخنجر كان بيده فقطع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالعير من قماص، ولما وقعت الضجة قطع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا ثيابهم ونعالهم ومصاحفهم وغير ذلك فقائل يقول: إن الإمام المهدي قد خرج، وآخر يقول: إن الناس يذبح بعضهم بعضاً في الجامع، واهتزت المدينة ثم تراجع الناس بعد حين، وأما اللص فإنه خرج شاهراً سلاحه حتى وصل إلى باب المسجد فكثره الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فإذا به قد أدار حبالاً كثيرةً من تحت الثياب

على بدنه وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلون يعالج جراحاته إلى أن مات من آخر الليل واتهم أولياؤه ناساً من أعيان فاس بأنهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد اللّه محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامل سلا أبا عبد اللّه محمد بن سعيد السلاوي باشدورين إلى دولة فرنسا بباريس، وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد اللّه بن سعيد المذكور قال: كان سيدنا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله قد أصحبنا كتاباً إلى طاغية الفرنسيس وأمرنا بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم إلى المغرب وأن يكون ينتخبهم من بيوت الأعيان وممن يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم، ولما وصلنا إلى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة ففرح وقابلنا بمالاً مزيد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه مع أن إكرامنا والحمد لله لهم يفوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنا بباريس شهراً وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والأثاث من الفضة والمعدن ووكل بنا أمين يصير علينا حسب نظرنا وقومة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك ومعنا أصحابنا وطباخنا إلا أنهم منعزلون بمحل يخصهم، وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر، وقد أكرمنا الطاغية بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والأعيان ليلاً وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالاً، وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحيي الزوجة ومن معها بالسلام أولاً ثم بعد ذلك تحيي الرجل، ورأينا من الطاغية ووزيره على الأمور البرانية من البرور والبشاشة ما جاوز الحد وطلب منا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بناء رومة وفي أي وقت بنيت واسم بانيها ونبعث به إليه اهـ كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس

وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عند السلطان وعند الناس حرس الله مجادته، وأدام بمنّه عافيته وسلامته.

ونص الكتاب الذي وجههم به السلطان رحمه الله مكتوباً فيه اسم السلطان بداخل الطابع الشريف: بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من عبد اللّه المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى وهو محمد بن عبد الرحمٰن وفقه الله أدام الله نصره وزين بالخيرات عصره، إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها، وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها، فأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم نتائج فكره، ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بونابارتي، أما بعد فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد، وإننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فإن محبتنا معكم الشخصية زادت على ما كانت عليه في عهد الأسلاف، وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف فإن القلوب في الوداد تتضاهى، وما بني على أصل وثيق كان جديراً بأن يعظم ويتناهى، وبموجب ذلك عينا للسفارة إليكم خالنا الأرضى الأنجد القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي وهو أحد باشات جيشنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحم لدينا، ومعه خديمنا الأرضى الأمين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو عندنا أيضاً بالمكان المكين لما تخلق به من الأدب والعقل الرصين والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين، والظن بشيمتكم مقابلتهم بحسن القبول وتبليغهم في وجهتهم غاية المأمول جرياً على عادتكم القديمة، وسلوكاً على طريقتكم القويمة، وقد حملناهم ما في خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم، ففي أخبارهم كفاية وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه

إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم كما أننا نتحقق أنكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة بإيالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصي في ترحيب الصدر والمجاملة، والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها والتمام في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا الكتاب بديع في بابه غريب في منواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الأحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصارة رحمه الله، وفي شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمه الله مرضاً شديداً أشرف منه على الهلاك بل أشاع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البادية إلى العيث في الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا في جناتها ومنعوا الداخل إليها والخارج منها وغلقت الأبواب واستمر ذلك إلى عيد الأضحى، ثم ورد الخبر اليقين بإبلال السلطان وإفاقته من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به إلى حد اليأس والإشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومنّ على إمامهم بعافيته فأعملت المفرحات والولائم في جميع الأمصار.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس ما ملخصه: لما أفاق السلطان رحمه الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة ووزراؤها لابنه الخليفة المنتصر بالله أبي علي المولى حسن بن محمد يهنئونه بعافية السلطان فأمر هذا الخليفة أعزه الله بإخراج المدافع والأنفاض حتى اهتزت الجبال، ثم دعا أيده الله الناس الدعوة الحفلا فلم يتخلف ممن كان بمراكش أحد من العقلاء فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وفجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره، وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقيالها، وكان ذلك بأثر عيد الأضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة، ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما عم الأول منهم والآخر هذا للعامة المطلقة والأوزاع الملفقة، وأما الخواص والوجوه

فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بصريح الترحيب دون كناية بالقعود على الفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطنبة، والرش بمياه الأزهار ومباخر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللّهو والفرح على حسب ما اشتهى واقترح، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني إلا أصوات المثالث والمثاني وضروب الألحان والأغاني، واستمر الناس في ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع إخوته وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها، وكل عشية يركب من بالحضرة من الوجوه والأكابر على عتاق الخيل والجياد الضوامر ويبدي ما عنده من الثقافة والفروسية مع إظهار الشارة المخزنية والأبهة الملوكية ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ووجوهها ورؤساؤها وقوادها في انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداه إليه اختياره واعتناؤه، ثم تتابع الناس في نزهاتهم وإظهار أبهاتهم وانتخاب دواعي الأفراح، ومقتضيات الازدهاء والانشراح فما يمر أحد ببستان إلا ويجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية اهـ.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف كان بالمغرب جراد سد الأفق وذلك في ربيع الأول الموافق لشهر مارس العجمي فأكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بآمرد فأكل كل خضراء على وجه الأرض واستلب الأعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض في الأمصار حتى دخل على الناس في بيوتهم.

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب الذي لم يتقدم مثله بلغ فيه الربيع وهو ربع ثمن المد بسلا ورباط الفتح ستين أوقية وباع الناس أثاثهم وحليهم بالبخس وكان الأمر شديداً على الضعفاء وفي ذي القعدة من هذه السنة توفي القائد الأجل أبو محمد عبد اللّه بن عبد الملك بن بيهي الحاحي وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والإيثار والمعروف له في ذلك أخبار مذكورة رحمه الله.

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب بالقيء والإسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية. وفي زوال يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي قاضي سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد اللّه محمد العربي بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بضريح الشيخ أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه، وكانت لهذا القاضي سيرة حسنة وعدل في الأحكام وتأن فيها مع سمت ومروءة وانقباض رحمه الله، وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوماً حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبي بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد رحم الله الجميع.

وفي هذه السنة أمر السلطان رحمه الله بضرب الدرهم الشرعي وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لا يذكروا في معاملاتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم إلا الدرهم الشرعي وشدد في ذلك وكتب فيه إلى ولاة الأمصار يقول في كتابه ما نصه: وبعد فإن أمر السكة من الأمور الواجبة المتعين رد البال إليها والاهتمام بشأنها والنظر فيما يصدر بسببها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم، وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيراً بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفاسدها وجعلوها على قدر شرعي معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة إذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التي هي من دعائم الإسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطباً في بشيء، ولما رأينا ما حدث فيها من التغير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السديد ردها لأصلها الأصيل الذي أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف أذلنا فيهم أسوة حسنة في الإجمال والتفصيل، فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعي والمنهاج المرعي كما كان على عهد جدنا سيدي الكبير قدسه الله وجدد عليه وابل رحماه بحيث تكون عشرة دراهم منه هي المثقال كما هو معلوم، إن عشرة دراهم من الدراهم التي كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هي المثقال وبهذا العدد

الذي هو عشرة منه في المثقال تكون جميع المعاملات والمخالطات في البيع والابتياع وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة في كل البوادي والحواضر وبه أمرنا جميع العمال، ومن هو مكلف بعمل من الأعمال، وإشاعته ليبلغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب المال وأمرناهم بالعمل بهذا الأمر الذي أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيناه، وأن يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك، وبأن يسلكوا به أضيق المسالك جزاء وفاقاً على مخالفته وتعديه الحد وافتياته، نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قبل تاريخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم في السكة فلا يكلف أحد بزيادة، ومن كان بذمته شيء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج به السكة في الريال والدرهم والعمل بهذا الذي أمرنا به هو من الآن لما يستقبل إن شاء الله، وبهذا يزول الإشكال فيما تقدم بين الناس في المعاملات، ونسأل الله أن يخلص العمل في سبيله ومرضاته ويجازي من فضله وكرمه على قصده وصلاح نياته والسلام، في ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف اهـ.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفي البركة الخير المنتسب سيدي الحاج محمد بن العربي الدلائي الرباطي بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة إليه بها رحمه الله ونفعنا به، وفي هذه السنة كان سوق دار البلار بباريس من أرض افرانسا وذلك أن الطاغية نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاقه لغيره من الأجناس حاول أن يتجاوز ذلك إلى أن يجلب إلى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب في العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره فكتب إلى ملوك الآفاق يقول: إنه قد عزم على إقامة سوق بباريس في وقت معلوم وطلب منهم أن يبعثوا بتجارهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم إليها وقصده بذلك عموم النفع وتعدي الصنائع والحرف من أمة إلى أخرى، فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجاري بين الدول، والعادة المقررة من عهد الملوك الأول، ولم يبق إلا من بعث تجاره ونفائسه وغرائبه من الجليل إلى الحقير، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله قد بعث تاجره الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي

المعروف بالفرنساوي وهذا الرجل من العارفين باللسان الفرنجي البصيرين بعوائد ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوي وبعث معه السلطان رحمه الله كل شيء غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة، ومناطق مزخرفة، وقطائف منمقة، وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه في محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل إقليم حتى السلطان عبد العزيز العثماني رحمه الله، فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبي:

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس إلى بلادهم، ولما بلغ نابليون الثالث إلى هذه الغاية فجئته وقعة البروس التي كسرت من شوكته وفلت من غربه وقبض عليه باليد وحوصرت دار ملكه باريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريالات افرنك لكل رطل على ما قيل، ولم تغب عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا لدول البروس.

وفي سنة ست وثمانين ومائتين وألف وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفي الوزير أبو عبد اللّه محمد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين وكان سبب وفاته أنه كان به داء الحصر فدخل الميضأة التي بمشور أبي الخصيصات من دار السلطان بحضرة مراكش فيقال: إن مثانته تمزقت فمات رحمه الله وحمل إلى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواسين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبي محمد الغزواني من حومة القصور، وكان رحمه الله ذا جد في الأمور ونصح للسلطان وللمسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين وألف وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني منها خسف القمر خسوفاً كلياً بعد الغروب إلى نصف الليل، وفي فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي الولي الصالح الناسك السني أبو عبد اللّه محمد الطيب ابن الشيخ الأشهر مولاي

العربي الدرقاوي ودفن بمحل زاويته بآمجوط من بلاد بني زروال، وكان من خيار عباد الله على غاية من التقوى والورع والتواضع مع الناس، يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشيء مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعني والإعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمه الله ونفعنا به، وفي التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة، وكاد يكون كلياً حتى أظلم الجو وبقي من الشمس حلقة نورانية يسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلي لتراكم السحاب، وفي هذه الأيام ظهرت حمرة في السماء غريبة أرجوانية مع غاية الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشاءين معظمها في جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفي ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك في الساعة الثالثة منها زلزلت الأرض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياماً.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف غزا السلطان سيدي محمد رحمه الله قبائل تادلا فمر على السماعلة منتصف رجب، ثم منهم لبني زمور، ثم لأبي الجعد، ثم منه توجه لقصبة تادلا وعبر القنطرة ونزل على بني عمير، ثم زحف لبني موسى فأوقع بهم لأنهم كانوا خارجين على عاملهم الغزواني ابن زيدوح فقطع منهم خمسين رأساً وقبض على أربعين مسجوناً، وفي أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانوا قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموا على السلطان متنصلين مما فرط منهم فأعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاماً ولا قبل لهم عذراً فرجعوا مخفقين، ثم تقدم السلطان رحمه الله إلى مراكش وهو غضبان على أهلها وكانوا مظلومين فيما قيل إلا أنه لبس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا إليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفت إليهم، وكان ابنه وخليفته المولى الحسن حاضراً يومئذ فتقدم إلى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولاً جميلاً، وكان هذا الحادث في رمضان

من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك إلا مدة يسيرة حتى توفي وتخلصت قائبة من قوب، وعفو الله بعد ذلك مرقوب.

وفي سنة تسعين ومائتين وألف كانت جائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والثمار وأجيحت الجنات وتراجع الناس في أثمان ما بيع منها بعد إثبات الموجبات، وكانت أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله في أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت، ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الأمن وانخضدت شوكة قبائل العرب بالمغرب وأمنت الطرقات من عيثهم وازدهت الدنيا ورخصت الأسعار رخصاً يسيراً وكان الناس ممعشين في أيامه وغلت الدور والأملاك حتى كانت في بعض السنين لا تسمسر ومن يشتري داراً إنما يشتريها بالتنقير عنها والطلب من ربها بالثمن الجافي، واتخذ الناس ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفيسة، وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لا سيما بفاس ورباط الفتح، ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية، وكان للسلطان سيدي محمد رحمه الله في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم، فكانت الرعية كأنها في كف يده، وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالغث والسمين فيسمع ذلك كله فينتقي منه الصحيح ويطرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك.

وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش في البستان المسمى بالنيل ولم يمرض إلا يوماً أو بعض يوم قيل إنه شرب دواء مسهلاً فكان فيه أجله والله أعلم، ودفن ليلاً بضريح جده المولى علي الشريف قرب ضريح القاضي عياض، وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهي:

أمستعبراً حولي رويدك إنني ضريح سعيد حل فيه سعيد
هو العلوي الهاشمي محمد إمام له في الملك سعي حميد
أبوه أبو زيد وقدس ذكره فقد كان يبدي في العلى ويعيد
ترحم عليه واعتبر بمصابه فعقد نفيس قد أصيب فريد
ومن رام تاريخ الوفاة فقل له بشعرك أرخ ما عليه مزيد

بقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله متقياً لله تعالى بانياً أمره على الشرع لا يشذ عنه طرفة عين حتى أنه لما عزم على بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصفة في جناتهم التي هنالك فأذعن رحمه الله لإعمال الشرع معهم واستناب وكيلاً عنه واستنابوا هم وكيلهم أيضاً وتحاكموا لدى قاضي سلا الفقيه أبي عبد اللّه محمد العربي بن أحمد بن منصور، ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام، وكان رحمه الله حازماً في أمره عالي الهمة رامياً بها الغرض الأقصى إلا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره وكان ذا سياسة وسكينة وتأن في الأمور وتبصر بالعواقب كثير الحياء بعيد الغضب سريع الرضى مشفقاً على الرعية متوقفاً في الدماء لا يزايل خوف الله قلبه رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه، وله آثار بالمغرب منها ما خلده أيام خلافته في حياة والده ومنها ما فعله بعد ولايته.

فمن آثاره في أيام أبيه كما قال أكنسوس: إجراء الأنهار وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها، وتكملة غرس آجدال بحضرة مراكش وكان في زمان الصيف يناله الجدب من قلة الماء لأن بركه التي كان يختزن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين الذي

تجلبه السيول إليها وأعظمها البركة الكبرى التي بدار الهناء، وكان يقال لها: البحر الأصغر، وطولها اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها، وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء من بني في وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء السلطان سيدي محمد رحمه الله أيام خلافته فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكنسوها وعادت إلى حالها الذي بنيت لأجله وهو اختزان الماء لوقت المصيف وبذلك كمل المراد من آجدال وصار آمناً من العطش والأمحال، ومن ذلك أيضاً إحياء عين أبي عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا فعمد إليها سيدي محمد رحمه الله وفجر لها عيناً ثرة وماء غدقاً وأجراه إلى البركة المذكورة بعد أن أمر بتنقيتها وإصلاحها فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة تغني الزارعين وتبهج الناظرين، وبنى رحمه الله حولها قلعة يأوي إليها الأكرة والحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هنالك من إناث الخيل المعدة للنتاج عدداً كثيراً، ومن ذلك إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الأصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقيض الله لها هذا السلطان فجمع الأيدي عليها حتى أخرج ما في جوفها من جبال الطين وأصلح ما تشعث من حيطانها وأجرى إليها العيون والأنهار وأمر بغرس ما حولها من الفضاء بأنواع الأشجار وضاهى بها جنة آجدال، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر المسمى بتاركي المستمد من وادي نفيس فإنه ضاهى به النهر القديم الذي هناك وهذا النهر الجديد أنفع منه وأوسع أحيى الله به تلك البسائط التي بين مراكش ووادي نفيس، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر الذي جلبه من تاستاوت إلى البسيط الذي بين بلاد زمران والرحامنة والسراغنة وهو المسمى بفيطوط فصار ذلك كله رياضاً مخضرة، وبساتين

ذات أزهار مفترة، وبنى رحمه الله فيها قصبة عامرة يأوي إليها الوكلاء والفلاحون وصارت آهلة عامرة بعد أن كانت بائدة غامرة.

ومن آثاره بعد ولايته أمر المؤمنين داره الكبرى بآجدال رباط الفتح والسور الكبير المحيط ببسيطها، وجلب الماء إليها بعد أن صير عليها أموالاً كثيرة، وأحيى جامع السنة قربها وكان بائداً يعشش فيه الصدى والبوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة، وأحيا المسجد الصغير هنالك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى به وزخرف سقوفه وانتهج الطريق من الدار المذكورة إلى الوادي أسفل من حسان تسهيلاً على المارة وتقريباً عليهم، ومنها أنه نقل طائفة من الجيش السوسي الذي بالمنشية وأوطنها حول الدار المذكورة بآجدال فاستطابوا المقام هناك وحسنت حالهم وانعمرت بهم تلك الناحية وهم الآن بهذا الحال، ومنها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصائر عليه من أحباس المسجد القديم وإنما السلطان رحمه الله أذن في بنائه بإشارة عاملها يومئذ أبي عبد اللّه محمد بن إدريس الجراري، ومنها الحمام القديم الذي بها وكان الصائر عليه من بيت المال، وأصلح رحمه الله أسوار الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد أحوالها، ومنها بمراكش دار (فابريكة) السكر بآجدال منها صير عليها أموالاً طائلة وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة إلا أنها اليوم معطلة لقلة المادة، ومنها دار (فابريكة) تزديج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش أيضاً، ومن ذلك برج الفنار الذي على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة في البحر ليلاً من مسافة بعيدة وصير عليه مالاً له بال وكانت المراكب تنشب بذلك الساحل كثيراً إذ لم يكن لها علامة تهتدي بها في البحر، ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة، وله رحمه الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله في ميزان حسناته ورفع بها في عليين درجاته.

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمٰن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والأشراف وأعيان مراكش وأحوازها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الإمامة، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة، ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين، ولأن والده رحمه الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته، فنهض بأعبائها وتقلب من مغاني السعادة في ظلالها وأفيائها.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس: لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا في قصوره السلطانية من الحدائق والأزهار، عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، كما حدثني بذلك بعض بطائنه وأنه يجد لها في خلواته لذة وحلاوة، فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائباً عن الحضرة بأبي ريقي من بلاد حاجة فكتب إليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف، ولما دنا منها خرج للقائه الوزراء والقضاة والأشراف والأعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونسائهم وصبيانهم فملؤوا تلك البطاح وضاقت بهم الأرض وأخذوا يعزونه ويهنؤنه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم عل حدتها حتى النساء والصبيان إشفاقاً عليهم وتطييباً لنفوسهم، وكان يوم دخوله لحضرة مراكش يوماً مشهوداً وموسماً من مواسم الخيرات معدوداً، ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الأمصار ونسلوا إليه من سائر النواحي والأقطار، وكل وفد يأتي ببيعته وهديته، واغتبط الناس بولايته وتيمنوا بطلعته، فقابل أيده الله كلاً

بما يستحقه من الإكرام وأفاض على الرعية جلائل الإنعام، وشرع في تجهيز الجيوش وفتح بيوت الأموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب، ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصداً حضرة فاس والوقوف على الرعاية والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السراغنة وخرج منها إلى البروج ومنها إلى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هنالك خبر فتنة أهل فاس وإيقاعهم بالأمين الحاج محمد بن المدني بنيس، وكان السبب في ذلك على ما قيل أنه لما وصل خبر وفاة السلطان إلى فاس وأن الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضاً اشترط عامتهم لا سيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال إن بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والأعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان، ولما تمت البيعة أصبح الأمين بنيس غادياً على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف في الأسواق والأبواب وغيرها فكلمه بعض أعيان فاس في التأخر عن هذا الأمر قليلاً حتى تطمئن النفوس ويثبت الحق في نصابه، وحينئذ يؤتى الأمر من بابه فأبى وأصر على ما هو بصدده فثار به العامة وهدموا داره وانتهبوا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه فأقام به وأمن على نفسه، وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضاً خبر فتنة أهل آزمور وقتلهم لنائب عاملهم وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة المراكشي ونائبه هو أحمد بن المؤذن الفرجي من سكان آزمور، وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة، ثم أن أهل فاس كتبوا إلى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتنصلون فيها من فعلة بنيس ويرمون بها العامة والغوغاء ومن لا خلاق لهم (ونصها):

الحمد لله وحده الكريم الذي لا يعجل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبرى والجاه العظيم، المخاطب بقول مولانا في كتابه الحكيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم:4] وعلى آله الذين أوجب الله لهم مودة وحباً وأنزل فيهم ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشروى:23] وأصحابه الذين كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعونهم، هذا، ونخص المقام الذي علا قدره، واستنار ضوءه وفجره، وجلله الفخار والوقار وعلاه البهاء وكساه، وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان علي وفاطمة والحسنان في داخل كساه، من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهاد والوساد، وتزينت بمدائحه الطروس العاطلة، وخجلت لسماحته الغيوث الهاطلة، من ضربت المفاخر رواقها بناديه ولم تزل المعالي تدعوه لنفسها وتناديه، واتخذت بيعته جلباباً للأجياد والاعناق وأغضت مهابته الجفون والأحداق، عين أعيان الدولة الشريفة المولوية وصدر المملكة العلوية، الذين لم تزل سيرتهم في سجلات الآثار المحمودة مرسومة، ومآثرهم في الدواوين مرقومة، وألقى إليه هذا القطر المغربي الرسن وحل منه محل الوسن، السلطان المؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت في حدائق المزايا غروسهم، ويسير المجد تحت ألويتهم وتتعطر المجالس بطيب أفنيتهم، لا زال السعد يراوحك ويغاديك، والعز نائماً بواديك، والطعن في عين حاسديك، والقذى في عين أعاديك، وجعلك الله من صروف الزمان في أمان، ولا قطع الله عن جماعة العلماء جميل عادتكم، ولا سلب المسلمين ملابس سعادتكم، ورفع في بروج السعادة أعلامك ومكن من رقاب الأعداء حسامك، وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك، وشريعة جدك مقلدك وأمامك، في نعمة طويلة الأعمار وروضة حلوة الثمار، أما بعد، أبعد الله عن ساحة سيدنا كل شر، وقرب منها المحسن والبر، وأبقاها ملجأ للمحتاج والمضطر، فإنه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب سنى معظم الصفات والأسما بديع المعاني رائق المباني، غمر ببلاغته البلغا ورقي ببراعته أعلى المنابر فمن تكلم دونه فقد لغا، بادرناه بالتقبيل وأحللناه محل التاج والإكليل، فقرئ على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير، واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس، وتشوق الحاضرون

لسماع ما فيه، وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفيه، والجامع غاص بأهله وكل حال بمحله، فلما قرىء الكتاب تبين أن صدره مدح وعجزه لوم وعتاب، فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال، وجمع بين ترغيب وترهيب فارتاب منه كل مريب، فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم، تفرقت الجماعات أفواجاً وارتجت المدينة ارتجاجاً، وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفزع، والذي أوقع الناس في ذلك ما في الكتاب من الأمر بتدارك ما وقع ففهموا أن ذلك برد ما ضاع، وقد تفرق في الآفاق وما اجتمع، وذلك غير ممكن كما سيتبين والحق أوضح وأبين من أن يبين، على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد، لينقطع من جماعة السفهاء عداؤها، ولئلا تتقد نار الفتنة فيتعذر إطفاؤها، أما ما وقع في قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال إلى الاحترام بمولانا إدريس، وفعل بأمكنته الفعل الخسيس، وليمَ بسببه المرؤوس والرئيس، حتى توجهت الحجة على مسموع الكلمات، إذ هي متوجهة من جهات، فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها، وإيرادها على مقتضى كنهها من غير قلب للحقيقة، ولا خروج عن متن الطريقة، وفي كريم علم سيدنا أن للإنسان أعذاراً يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام، وذلك أن ما وقع من النهب وقع بغتة في يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته، والمدينة وقتئذ عامرة بالبادية والحاضرة، ولا معرفة لنا بمن نهب ولا بمن أتى ولا بمن ذهب، أمر أبرزته القدرة لم يمكنا تلافيه ولم يفد فيه نهي سفيه، فلو صدر ذلك من آحاد معينين وأفراد مخصوصين لأمكن الانتصاف، وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتساف، لكن الأمر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر، فيهم الأبيض والأسود والأحمر، وما منهم إلا من استأسد وتنمر، وليس في وجوههم من الحياء علامة ولا أثر، لا يقبلون موعظة إذ ليسوا من أهل الفكر، فلا يمكن دفعهم إلا بجيش عظيم وعسكر يصاح فيهم بالنهي وهم في طغيانهم يعمهون، ولا يلتفتون إلى من نهاهم بل لا يشعرون، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون، ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع

بالحرم الإدريسي ما وصلكم، ولا أظنه إلا فصل لكم، لكن عمتنا ألطاف الله ورحماته، وحفظ الضريح ورحباته ولم تنتهك حرماته، وحمته حماته ورماته فأبوابه قد فتحت، وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت، ومما في الكتاب المذكور: أن السفيه إذا لم ينته فهو مأمور، ولعمرك أنه ليس منا علم بذلك ولا شعور، وكيف يأمر العاقل بالمحظور؟! أم كيف يرضى مسلم بهتك حرمة الإسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله؟! وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر، فكيف بمن باشر أو أمر، لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح، فنسأل الله أن يمنّ عليهم بالتوبة من ارتكاب هذه الحوبة، وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله آمنة، والنفوس مطمئنة ساكنة، والأيدي على التعدي مكفوفة، والطرق مسلوكة غير مخوفة، وذلك بعد معاناة في إخماد نار الفتنة ونصب، وألطاف الله تتوارد وتصب، بعد أن كانت نار الفتنة توقدت وتأججت، وبلغت القلوب الحناجر وبالأكدار قد مزجت، وكل من له مروءة ودين وعد من المهتدين، بذل في صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعل الجميل ما عنده، ولقاضينا بارك الله فيه اليد الطولى فلم يقع منه تقصير في القضية الثانية ولا الأولى، هذا، وكما في علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفاني وما أغواه، وقهر نفسه عند الغضب وابتكر ما يوصله إلى الله واقتضب، وأن الكريم إذا حاسب مسامح وإذا قدر عفا، ولو أبدى المسيء إساءته وهفا، فليتفضل سيدنا بقبول شفاعة من يضع اسمه في هذا الكتاب من العلماء والأشراف، ومنهم بعدم صواب ما صدر من السفهاء إقرار واعتراف، ولا يستغرب صدور الخير من معدنه والفضل من موطنه، وتتحاشى أخلاقك الفاخرة وشيمك الطاهرة أن تكون شفاعتنا في هؤلاء العصاة مردودة، وجماعتنا عن ساحتكم مبعدة مطرودة، ولحسن الظن بكم تحمل لجانبكم الزعيم والكفيل على أن لا نرى منكم إلا الجميل فليمن سيدنا على هذه الحضرة الفاسية منا، ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وكيف والحلم من داركم برز وخرج، وفي أوصافكم الحسان اندرج، فأحببنا أن تكون هذه

المنقبة في أوصافكم تذكر، وفي صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والإغضا عما سلف ومضى، وكلنا من رعيتكم ومقتطفون من ثمار روضتكم، ومستمدون من مائدتكم، والظن الأقوى بكم أنكم تقبلون الشفاعة منا، وتمنون على المستضعفين من رعيتكم منا، وكأنا بكتابكم بضمن ذلك يتلى، وكلماته أشهر من العسل وأحلى، والله يتولى أمر الائتلاف بمتعود إحسانه، ويجمع قلوبنا على طاعته وموجبات رضوانه حتى نكون في ذات الله إخواناً، وعلى الدين أنصاراً وأعواناً، والقلوب بيد من له الأمر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار، وخير العمل عمل قرب إلى الجنة وأبعد من النار، فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزري بالإسلام ويهينه، ولا يلتفت لدواعي القطيعة فإنها تقوي الكفر وتعينه، أما علمنا أن من ورائنا عدواً يشتهي مواطىء أقدامنا، وتنكيس أعلامنا، تقضي أخوة الإسلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح إلا إليه، ولا تمالؤ إلا عليه، وفقنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه آمين والسلام في منتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف اهـ.

ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان المذكور، وكان العيد يوم السبت فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم به صحيح الإمام البخاري على العادة، وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي، وحضر ذلك المجلس وفود المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤها، وحضرنا في جملتهم ومدح السلطان بقصائد بليغة، واحتفل أعزه الله لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب وفرق الأموال على من حضر، ثم وصل أهل العدوتين من علمائهما وقرائهما ومؤذنيهما وطبجيتها وبحريتهما على العادة، وهناك قدم عليه أهل آزمور متنصلين مما صدر من عامتهم في حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح إلى أن بحث عن رؤوس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بما يستحقونه، وأقام السلطان أعزه

الله برباط الفتح إلى يوم السبت الثاني والعشرين من شوال من السنة، فنهض قاصداً مكناسة فعبر المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجل عن الحصر، وكان نهوضه عن إزعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمٰن بن سليمان ولد الذي كان ثار لأول بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطمعه شياطين البربر في الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان، وسقط العشي به على سرحان، ولما كان السلطان أعزه الله ببلاد بني حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتاباً إلى الأمصار يقول فيه ما نصه: وبعد، فإن عبد الكبير بن عبد الرحمٰن الذي سولت له نفسه ما سولت من الرأي المنكوس، والحظ المعكوس، كان تحزب بشياطين وأوباش من برابرة بني أمكليد وأتوا به لآيت عياش، قرب فاس، فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخوالنا شراقة وغيرهم من الجيش السوسي وقبائل الصلاح قاموا على ساق في طرده وإبعاده، ونفيه من ساحتهم وتشتيت رماده، وقابلوه بالنكاية والوبال، ورأى منهم ما لم يخطر له ببال، ورجع بخُفي حُنين، ثم بعد الطرد والإبعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال، ولا أقلع عما طمع فيه من المحال، ولا انتبه من نومته ولا أفاق من سكرته، وبقي على دورانه عند البربر إلى أن ختم مطافه بالوصول لآيت يوسي فحكم الله فيه هنالك وأتى به مقبوضاً عليه وذهبت ريحه، وسقط في أيدي من كان آواه من البربر وحصلوا كلهم على الخسران والخزي والخذلان، وها الفتان متقف تحت يد أخينا الأرضى مولاي إسماعيل رعاه الله، فالحمد لله حق حمده ولا نعمة إلا من عنده، وهو المسؤول بنبيه ﷺ ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته، وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته، هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفافعة من بني حسن ومحلتنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله، وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها، والأرباح تكفل بها سوقها، وقد أعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرح بما خول مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فللّه الحمد وله المنّة

والسلام في السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف اهـ. ثم تقدم السلطان أعزه الله إلى دار ابن العامري فأوقع بأولاد يحيى فرقة من بني حسن وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقي فهدموا داره وانتهبوها، وعاثوا في الطرقات وأخافوها، فأوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتأتي عليهم فتشفعوا إليه وتطارحوا عليه وأظهروا التوبة والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال، ووظف عليهم مالاً له بال، ونهض أعزه الله إلى مكناسة الزيتون في سابع ذي القعدة من السنة فدخلها مظفراً منصوراً، ولما احتل بها كتب أيده الله إلى الأمصار بما نصه: وبعد فأنا بإثر الفراغ من أمر القبيلة اليحيوية وبناء أمرها على أساس الجد بحول الله وحصول المراد من كمال استقامتها بحمد الله وجهنا الوجهة السعيدة لوطن أسلافنا الكرام قدسهم الله بمكناسة الزيتون وتقدمنا في محلتنا السعيدة المنصورة التي أرخى اليمن والظفر عليها ستوره، فلقينا في طريقنا أهل هذا القطر المغربي من البرابرة وغيرهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم مظهرين غاية الفرح بمقدمنا ومتبركين بيمن طلعتنا وقائمين بالسمع والطاعة لعليّ جانبنا وحللنا حضرتنا السعيدة بمكناسة الزيتون في يوم كان من الأيام السعيدة المشهودة، والأوقات المعدودة، بل فاق ذلك اليوم السعيد بما وقع فيه من السرور كل موسم وعيد، فالحمد لله على ما خول وأولى من فضله العميم وخيره الجسيم، وهو المسؤول بنبيه ﷺ ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته: وأن يجرينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنّته آمين والسلام، في العشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعين ومائتين وألف اهـ.

وكان دخوله أعزه الله إلى مكناسة بعد زيارته تربة المولى إدريس الأكبر وصلاته الجمعة بها، وأطال أيده الله المقام بمكناسة وفي مدة مقامه بها أوقع ببني مطير ومن لافهم من مجاط وبني مكيلد وآيت يوسي وغيرهم بعد أن طال قتاله لهم ثم اقتحم عليهم معاقلهم وانتهى إلى الموضع المعروف بالحاجب بحبوحة قرارهم ومحل منعتهم وانتصارهم، بل تجاوزته عساكره

المنصورة وأعلامه المنشورة بمسافة بعيدة إلى أن دخلت فم الخنيق الذي هو أول بني مكيلد فاستباحت هنالك حلاتهم، وطارت برؤوس عناتهم ومزقتهم في أعز مكانهم كل ممزق، وقبضت منهم على عدد وافر من الأسرى بعث به السلطان أعزه الله إلى الأمصار، فكانت عبرة لأولي الأبصار، وكان إيقاعه ببني مطير منتصف محرم فاتح سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقيماً بمكناسة إلى فاتح ربيع الأول منها، وفي يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله إلى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ما تلقاه أشرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماتها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضي، واجتمعت به مقدمتهم بوادي النجاة فألان جانبه لهم وتنزل لملاقاتهم تطييباً لنفوسهم، ولما وصل إلى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وزيارته والتبرك به، وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطرافه ويتمسحون بأذياله، وقدم الذبائح للحرم الإدريسي وغيره وأفاض من العطايا على الضعفاء والمساكين ما جاوز الحصر وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وموسماً من مواسم الخيرات معدوداً وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحية، واجتمعت ببابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانية، وازدان العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الأمور ونادى منادي السرور في الخاص والجمهور، ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينه أبا العباس أحمد بن محمد ابن شقرون المراكشي أن يرتب الوظيف المجعول على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه في حياة السلطان سيدي محمد رحمه الله ففعل وكان ذلك أواخر الشهر المذكور، ولما جلست الأمناء كلٌّ بمحله واستقامت الأحوال وذهبت الأهوال ثقل ذلك على الدباغين ومرضوا فيه وذهبوا إلى الشريف الفقيه المولى عبد الملك الضرير وقالوا له: أنت الذي أوقعتنا في هذا كله بضمانك إسقاط المكس أولاً حتى صدر منا في حق بنيس ما صدر، والآن أخرجنا مما أوقعتنا فيه أما بإسقاط المكس وأما بإخراج بنيس من بين أظهرنا لئلا تدول له دولة علينا والرجل قد صار عدواً لنا، فقام الفقيه المذكور وقدم على السلطان

أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السفلة من الدباغين فأعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل، فقال الفقيه المذكور: إن لم يكن شيء مما ذكرت لسيدنا فالأولى بي أن أنتقل إلى تافيلالت ولا أبقى بين أظهر هؤلاء القوم فأسعفه السلطان وبعث جملة من الحمارين لحمله وحمل أولاده، ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا إلى الحمارين فطردوهم وارتجت فاس وماجت الأسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعى عامل فاس إدريس بن عبد الرحمٰن السراج وكان متهماً بالخوض في وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فأظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب إلى السلطان وتهددوه بالقتل إن فعل، فقعد ووقع ذلك منه الموقع لأنه كان متخوفاً عى نفسه، ولما رأى السلطان أيده الله تمادي هؤلاء الطغام ومحكهم ولجاجهم بعد أن بالغ في إلانة الجانب والمقابلة بالجميل ومن ذلك إعراضه أعزه الله عن الكلام في أمر بنيس أمر بحصارهم والتضييق عليهم لعلهم يرجعون، ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعدوا على منار المدرسة العثمانية وعلى غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبي الجلود، ولما انتهوا من سوء الأدب إلى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جريمتهم فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا في النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب، وفي أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبا عبد اللّٰه الصفار يعظهم ويعرض عليهم الأمان بشرط التوبة والرجوع إلى الطاعة فأذعنوا وامتثلوا وانطفأت نار الفتنة، وانحسمت أسباب المحنة، فعجل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الآفاق وتلطف واعتذر بأنهم الذين بدؤوا بالحرب والبادي أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا إلى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وإبقاءً عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثاني من السنة.

ونص كتاب السلطان أعزه الله: وبعد، فبعد ما كتبنا لكم في شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال في جميع الأمور، اختبرناهم وبلونا أحوالهم فألفينا أحوالهم تصدق أقوالهم، فأمرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتاد كما فعلنا بمكناسة وغيرها من البلاد، فامتثلوا طائعين وجدوا في دفعها مسارعين، ومن جملة من أمنّا عليها ابن شقرون المراكشي الأمين فلم نشعر بالدباغين أصحاب فعلة بنيس إلا وقد ملئوا رعباً وتخوفوا أن يركبوا في المؤاخذة بها مركباً صعباً، فطلبوا إخراج بنيس من بين أظهرهم وإبعاده، وهم حينئذ عند السمع والطاعة المعتادة، فلم نساعدهم فازدادوا تخوفاً وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشاً وتشوفاً، فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأنينا كل التأني في مفاجأتهم، وأحجمنا حياء من معاجلتهم تأدباً مع حرمهم الأكبر سيدنا ومولانا إدريس الأزهر، ومراعاة لجماعة أهل الله الأحياء والنائمة، وإعذاراً وإنذاراً لتكون الحجة عليهم شرعاً وطبعاً قائمة، حتى ابتدؤونا وكسروا الحرم فقابلناهم والبادي أظلم، فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع، وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويتترسون بها، ونهبت حوانيت ودور واستلبت أيدي الجيش أقواماً منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالاً للآخرة والأولى، لكنا بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء في الحين بالعفو والصفح، وكف أيدي القتل والأسر عنهم إبقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر مآل أمرهم، ويصفوا كدر غمرهم، وفي عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرفاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شفعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدس من اللوازم والمغارم فشفعناهم على الشروط المذكورة، وقبلناهم على التزام الحدود المحصورة، وأعلمناكم لتفرحوا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع، ولئلا تصيخوا للأخبار الكاذبة مسام المسامع، أو تلتفتوا إلى أقاويل المرجفين الذين لا يدينون الله بدين، ولا يريدون إلا فتنة المؤمنات والمؤمنين، والسلام، في رابع ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف

اهـ، ثم إن السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس إدريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤوس الفتنة وغرَّبهم إلى مراكش، وولى على فاس القائد الجياني بن حمو البخاري أحد قواده واستقامت الأحوال.

وكان مما قيل من الشعر في هذه الوقعة قول صاحبنا الفقيه الأديب أبي عبد اللّه محمد بن ناصر حركات السلاوي حفظه الله:

لله ياتلك التي تأوي الفنا	لا تنقضي ما كان صبري قد بنى
كلا وقد هيجت مني لوعة	قد أوشكت في مهجتي أن تهدنا
وأتيت موطن مصرع العشاق ثـ	ـم بكيت حتى كدت تبكي الموطنا
لو كانت الأجبال تعقل لانثنت	تبكي لما بك رأفة وتحننا
فبأي رأي يا حميمة قد غدا	منك البكا عوض الترنم والغنا
وبأي ذنب قد فجعت قلوبنا	وسقيتنا كأس الأسى بدل الهنا
أو ما كفاك من المتيم مهجة	ما شأنها إلا معاناة العنا
صب له في كل يوم عبرة	وتلهف يقتده قد القنا
كيف اصطباري والحبيب مصارمي	والدهر مغراً بالوشاية بيننا
دعني فعدلك للمتيم ضلة	شر عليه من مقاساة الضنا
تالله لارقأت لعيني عبرة	حتى ترى وجه المليك الأيمنا
اليد الشهم السري الأصيد الـ	ـفخم النهي الباهي الهمام الصيدنا
الأعظم المستعظم العذب الحلي الـ	ـمستعذب الحسن الثنا المستحسنا
قد حاز في الأشراف كل فضيلة	ملأ المسامع حسنها والأعينا
ومكارماً ومحاسناً ومفاخراً	لو ذاق لذتها الكفور لآمنا
فلذاك سيدنا المقدس خصه	بمآثر ما تنتهي فتدونا
ورث الخلافة كابراً عن كابر	لا كالذي يأتي إليها ضعيفنا
عشقته عشق ابن الملوح خذنه	وصبت إليه صبا العيون إلى الرنا
وله وقد لبته قبل دعائه	ألقت أزمتها وقالت: ها أنا
ملك به الملك الأغر تشيدت	أركانه في العز محكمة البنا
أضحى به يختال فخراً قائلاً	لسواك يا ركن الورى لن أركنا

والدهر سلم والحظوظ بواسم ... والنصر يقبل من هناك ومن هنا

والسعد قد ألقى عصا تسياره ... في قصره متالياً أن يقطنا

حسنت بطلعته الدنا فكأنها ... حلى به هذا الزمان تزينا

إن المزايا والعطايا والحجا ... أخلاق سيدنا تناء أودنا

لا لا تقس قيساً به في النبل أو ... في الفضل قعقاعاً وأحنف في الأنا

أو في الشجاعة عامراً أو في الندى ... معناً وفي الإفصاح قس الألسنا

فهم لو اطلعوا على خصلاته ... لغدت ظنونهم بذاك تيقنا

فاستصغروا ما كان يصدر منهم ... وأتى جميعهم إليه مذعنا

ليت الملوك السالفين قد أحضروا ... فرأوا مليكاً مالكاً حسن الثنا

ولو أنهم علموا ضخامة ملكه ... قالوا: لنا ملك ولكن قدونا

ولو أنهم سمعوا بعظم سماحه ... تاقوا وقالوا: ليته في عصرنا

ولو أنهم قد أبصروا إقدامه ... بهتوا وقالوا: ليس ذا في طوقنا

هذا الأمير ابن الأمير ابن الأمير ... ابن الأمير المالكي رسن الدنا

هاذ العصامي العظامي الذي ... وسع الأماكن فضله والأزمنا

ما زال يسمح بالجوائز واللّها ... حتى لقد تخذ السماحة ديدنا

فخم نتيه تلذذاً بحديثه ... حتى نظن الأرض قد مادت بنا

طبع الفؤاد على مودته فما ... ندعو له بالنصر إلا هيمنا

يا أيها الملك السميذع والذي ... ما كان مشبهه مضى في غربنا

ما زلت تجتاب البلاد بسيرة ... عمرية تذر المعاصي مذعنا

وتبين للناس الرشاد وسبله ... وتريهم نهج السواء البينا

وتدمر العاتي بأبيض صارم ... وتقوم المعوج بالسمر القنا

لولا البغاة من الأنام وجورهم ... ما فارقت بيض السيوف الأجفنا

لكن بحلمك قد حقنت دماءهم ... ما أوشكت من بغيهم أن تحقنا

وأنمت في ظل الأمان جفونهم ... لولاك لم يك لامرئ أن يأمنا

ولقد تركتهم وكل قبيلة ... تثني عليك ثنا القلوب على المنا

حتى أتيت الحضرة الفاسية الـ ... غراء معتجراً بأثواب السنا

والملك من فرط السرور بك ازدهى   وله فم بجميل ذكرك أعلنا
وأتاك أهلها قولاً هل لنا   يا ماجداً من عطفة تشفي الضنى
يا طالما اشتاقت إليك قلوبنا   شوق الفقير إلى ملاقاة الغنى
فمنحتهم بعد الضراعة عزة   وكسوتهم بعد الأسا ثوب الهنا
هذا وما صبحتهم بكريهة   حتى جنى جهلاً بفضلك من جنا
شربوا كؤوس الحتف لولا أنها   أبقت عليهم رأفة وتحننا
وأتاك أرباب البصائر قولاً:   يا لا تؤاخذنا بزلة غيرنا
فصفحت عنهم صفح مقتدر ولم   تترك جيوشك فيهم أن تثخنا
وحبوتهم بعد الأسى بمسرة   منعت قلوب الناس أن تتحزنا
فغدى ببغيته المصافي وانثنى   بندامة الكسفى من قد شيطنا
لو كان في الإحسان شيء يتقى   لنهاك طبع الجود أن لا تحسنا
إن الكريم إذا تمكن من أذى   صاحت به أحلامه فتحننا
مثل الشجاع إذا سطى يوم الوغا   أضحى بري طعم الردى حلو الجنا
لا كالجبان فلو تكلف نجدة   صدته خشيته الحمام فأقبنا
وكذا اللئيم إذا أراد تفضلاً   جاءته أخلاق اللئام فأشقنا
لو أن جودك في الورى متفرق   ما كان فيهم من برى متمسكنا
ولو أن بأسك قد تفرق بينهم   ما كان يمكن لامرىء أن يجبنا
لو لم تكن مولى خميس أرعن   لكفتك هيبتك الخميس الأرعنا
لو أن من أثنى على هرم رأى   يوماً علاك لقال: غيرك ما عنا
شهد الأنام بأن مجدك باهر   لم يجحدنه جاحد فنبرهنا
يدعونك الحسن الرضى طرّاً ولو   شوركت في حسن دعوك الأحسنا
يا أيها الشهم السري ومن به   أضحى على الأقطار يفخر قطرنا
إني امتدحتك والمحبة شافعي   ومحبة الأشراف نعم المقتنى
وتحصني أبداً بعزة ركنكم   ومعزز من بالكرام تحصنا
لا زالت أمداحي لأقعس مجدكم   متواليات أو يصدني المنا
تالله لا قمنا بشكركم ولو   أعضاؤنا كانت جميعاً ألسنا

فلنمدحنك في الحياة وإن نمت قامت عظامتنا بمدحك بعدنا
خذها إليك خريدة فكرية طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنى
بهرت قلوب ذوي النهي بمحاسن منعت خرائد فكرهم أن تحسنا
فاصرف إليها منّة عين الرضى وامنع بفضلك حسنها أن يغبنا
دامت إليك من المهيمن نصرة تدع المعاند ضارعاً مستهجنا
بمحمد المختار جدك خير من قد أوضح النهج القديم وبينا
صلى عليه الله ما جن الدجى وأمالت الريح الجنوب الأغصنا
والآل والصحب الصناديد الذرى والمانحي قصادهم نيل المنا

ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان في حياة والده فألزم أهل فاس بخمسمائة، وألزم أهل العدوتين بستمائة، وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين، ولم يتخذ من مراكش ولا أعمالها شيئاً فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه، وفي أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال وجدة يقال له: أبو عزة الهبري من هبرة بطن من سويد وسويد من عرب بني مالك بن زغبة الهلاليين، وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط في الرمل ويتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الأوباش الذين لا شغل لهم وتأشبوا عليه ودنا من أطراف الإيالة وقوي حسه وكان السلطان أعزه الله عازماً على النهوض إلى تلك الناحية وتمهيدها ونفي الدجاجلة عنها فاستعد غاية الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها وعرضها كلها، ثم نهض من فاس منتصف رجب سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف، ولما بات في الليلة الثانية بآيت شغروسن أغار على المحلة ليلاً أبو عزة الهبري ومعه سعيد بن أحمد الشغروسني ويقال إنه إدريسي النسب فماجت المحلة بعض الشيء ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا المدافع وآلات الحرب نحو عدوهم فشردوهم فكان ذلك أخر العهد بهم وقبض على عدد من أصحابه وقطعت رؤوس منهم، وتقدم السلطان أعزه الله

في جموع مؤلفة من الجيش السعيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزاة القبائل الغربية بربرية وعربية إلى بني سادان وآيت شغروسن فأوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعثرت أرضهم وديارهم فلجؤوا إلى بني وراين فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع، ثم جاء بنو وراين متنصلين متبرئين إلى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجلاً من أعيانهم، ثم جاء بنو سادان وآيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مثقال وزيادة أربعمائة من الخيل فأذعنوا لأدائها واستوفاها السلطان أعزه الله منهم في أوائل شعبان من السنة، ثم تقدم إلى تازا فدخلها في أوائل الشهر المذكور، ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متمسكين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مغتبطين وبكل ما أمكنهم من الخدمة متقربين، وجاءت عرب الأحلاف ومن جاورهم حاملين هوادجهم المحلاة بأحسن حليهم وشاراتهم التي يستعملونها في مواسمهم وزيهم فقابل السلطان أعزه الله كلاً بما يجب من المجاملة وحسن المعاملة ما عدا ثلاث فرق من غياثة المجاورين لتازا وهم بنو أبي قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فإنهم كانوا يضرون بأهل تازا ويغيرون عليهم فألزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه في الحال، ثم وظف عليهم ثلاثين ألف ريال أخرى لبيت المال فأدوها أيضاً عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غياثة فإنما أدوا الزكوات والأعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال، وفي هذه الأيام جيء إلى السلطان بالهبري أسيراً فإنه لما خرج السلطان أعزه في طلبه وطلب غيره أبعد في الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتدافعه الشعاب والوهاد إلى أن ساقته خاتمة النكال إلى قبيلة بني كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاؤوا به إلى السلطان أسيراً حتى أوقفوه بين يديه مصفداً كسيراً، فأظهر الهبري الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به فطيف في المحلة على جمل ثم أمر ببعثه إلى فاس فسجن بها بعد أن طيف

به في أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الإيالة المغربية من جهة الشرق فوفدت عليه قبائل تلك النواحي وأهدوا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور.

حكى من حضر أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركاً به، وفي أوائل رمضان من هذه السنة في ليلة الخامس أو السادس وقع تناثر في الكواكب وتداخل واضطراب عظيم على هيئة مفزعة بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها إلى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الأعمى بقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

دام ذلك إلى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد بها بعيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيماً والموسم مخيماً، وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود فأهدى هدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل من بني يزناسن وغيرها، وقفل أعزه الله راجعاً فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقلت الأقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجند ولحق الناس مشقة فادحة، وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحدثوا به فإنه كان يسير بسير الضعيف ويقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم ويأمر بدفن من يدفن وحمل من يحمل، وإذا سقط لأحد دابته أو رحله وقف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا إلى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الأضحى من السنة فعيد بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه ويعرضه على عينه ويتصفح قوائم مؤنه ورواتبه فاطلع أيده الله على ما كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل من عزل وأدب من يستحق التأديب، ثم قبض على كبير العسكر السوسي وهو الحاج منو الحاحي وكانت فيه شجاعة وإقدام إلا أنه كان مفرطاً في التهور والإدلال على الدولة وكبرائها فأدى ذلك إلى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه

ولا زال مسجوناً إلى الآن، ثم سرح من السجن واستوطن مراكش عام ألف وثلاثمائة وخمسة، وفي هذه المدة شرع السلطان أعزه الله في بناء داره العالية بالله العامرة المزرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البستان المعروف ببستان آمنة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله إلى ناحية من ذلك البستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال يقال إنه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد بإشبيلية، ثم بنى الدار الكبرى بإزائها وهي من عجائب الدنيا حسبما بلغنا بالغ أيده الله في تنجيدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزري بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الأروام يقال إن ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألف ريال مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الأبصار، وجلب لذلك من الأثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال، وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه إلى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف، وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملاً لجباية تلك النواحي فعقد لأخيه المولى علي على جيش وأضاف إليه القائد أبا زيد عبد الرحمٰن بن الشليح الزراري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما إلىٰ ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومئذ يتولى عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها يكرهون ولاية ولد البشير عليهم ويحبون ولاية ابن الشليح إذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب آنقاد وكاتبهم، ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن إلا كلاً ولا حتى

وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور والياً على وجدة وأعمالها وجابياً لأموالها وناظراً في شؤونها وأحوالها، فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء، وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان إلا أنه انفسد أمره بما ذكرناه، ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج إليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشبت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضم إليه أخا السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويطرد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ إذ ليست هذه بطاعة كما لا يخفى، ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزناسن والعرب إلى المحلة فانتهبوها وعاد عبد الرحمن بن الشليح إلى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وبإثر ذلك كتب ابن البشير إلى السلطان يتنصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لا زال على الطاعة لم يبدل ولم يغير وإنما الذي انتهب المحلة هم السفهاء من غير إذن لهم ولا موافقة على ذلك، وحتى الآن فكل ما ضاع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منه، فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره إلى وقت آخر، وكان قد اتصل به في ذلك الوقت خبر أبي عبد الله محمد الكنتافي صاحب جبل تينملل، وكان أصل هذا الرجل أنه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولي عليهم هو قائد الجيش السوسي أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجراوي، وكان الكنتافي هذا أحذر من غراب وأمنع من عقاب قد اتخذ حصناً في رأس جبل تينملل حيث كان ظهور مهدي الموحدين حسبما مر في أخبارهم، وتحصن به وصار يؤدي للقائد الجراوي كل ما يأمره به من غير توقف إلا أنه لا ينزل إليه، فلما توفي الجراوي المذكور وولى السلطان على الجيش السوسي وما أضيف له وصيفه القائد أحمد بن مالك ضايق الكنتافي بعض الشيء وسار معه بغير سيرة الجراوي قبله فأنف الكنتافي من ذلك وأعلن أنه في طاعة السلطان ومتقلد بيعته يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولاية أحمد بن مالك ولو ألقي في النار، فكتب أحمد بن مالك إلى السلطان وهو بفاس يعلمه بأن الكنتافي قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وأشاع

المرجفون بأنه يحاول الاستقلال بالأمر التفاتاً إلى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبل منذ سبعمائة سنة، وربما حنّ هو إلى ذلك أيضاً، وقد حكى ابن خلدون أن أهل ذلك الجبل كانوا في زمانه على هذا الاعتقاد.

تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

واستأذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله في غزو هذا الكنتافي فأذن له فبعث إليه كتيبة من الجند ففضها الكنتافي فازداد المرجفون تقولاً وتخرصاً، ثم بعث إليه ابن مالك جيشاً آخر أعظم من الأول فهزمه الكنتافي أيضاً وقبض على جماعة منهم باليد فمن كان من جيش السلطان سرحه إظهاراً للطاعة ومن كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانوا عدداً وافراً، فتفاحش أمر الكنتافي في الحوز وكاد يستحيل إلى فساد فبعث ولده إلى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وأنه مظلوم من قبل أحمد بن مالك وما ارتكبه في حق الجيش إنما هو مدافعة عن نفسه وأنه لم يقتل جندياً قط وبالغ في التنصل وتقديم الشفاعات والذبائح والعارات فأرجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس منتصف رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل إلى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهي أن جماعة من شهود اللفيف اثنى عشر جاؤوا إلى القاضي أبي عبد اللّه بن إبراهيم رحمه الله ليلة التاسع والعشرين من رمضان وشهدوا عنده أنهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحقهم فيها شك ولا ريبة، فسمع القاضي شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو بقرميم فارتحل السلطان في جوف الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيداً وعيد أهل العدوتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب الذين حضروا مع السلطان ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق الفلكيون من أهل الدولة أن العيد لا يمكن في ذلك اليوم وتكلموا بذلك وفاهوا به فكثر الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضاً، ولما حان وقت الغروب ارتقب الناس الهلال والسماء مصحية ليس فيها قزعة فلم يروا له أثراً فأمر السلطان أعزه الله بالنداء وأن الناس يصبحون صياماً لأن رمضان لا زال فصام الناس من الغد وبعد ذلك

ظهر الهلال ظهوراً معتاداً وتبين كذب الشهود فسجنوا ثم سرحوا بعد حين، ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض إلى مراكش فلما قرب من زاوية ابن ساسي بين بلاد الرحامنة وزمران نزل هنالك على الرحامنة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرّض فوظف عليهم من الأموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة إليه في دخوله منزله، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة، وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوماً وكان يوم دخوله إلى مراكش يوماً مشهوداً، وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصاً من أعيان أولاد أبي السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطار شررهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد اللّه بن بلعيد وصالوا على القائد أبي حفص عمر المتوكي وكان القتل بينهم وبين شيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر إلى السلطان بفاس فأرخى أعزه الله لهم الحبل وأطال عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبا عبد اللّه محمد بن زروال الرحماني صورة حتى اطمأنوا بذلك وأنسوا، ولما قدم أعزه الله مراكش ضرب البعوث على قبائل الحوز فناب أولاد أبي السباع في ذلك ثلاثمائة فارس فقدمت مراكش بخيلها وأسلحتها، وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعوث القبائل داخل مشور أبي الخصيصات فجاء أولاد أبي السباع للعرض فلما توسطوا المشور المذكور أغلقت الأبواب وقبض عليهم وجردوا من السلاح وحملوا إلى السجن وكانوا مائتين وثمانين كما قلنا، ثم وجه السلطان أعزه الله إلى حلتهم القائد العربي الرحماني مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرمهم ستين ألف ريال فأدوها في الحال بعد بيع ماشيتهم بأبخس ثمن، وحينئذ بعث السلطان إلى عاملهم عبد اللّه بن بلعيد فاستدعاه من فاس وقدم وولاه عليهم فاطمأنوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد إلى أواخر صفر من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف

فقدم عليه أبو عبد اللّه محمد الكنتافي صاحب الجبل مستأمناً بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابله السلطان بالعفو والصفح وأكرم وفادته وولاه على إخوانه وانقلب إلى أهله مسروراً، ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين عدوهم ورواحهم وتشنفت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لأدباء العصر، وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الأمناء والطلبة، وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يؤم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياماً بعد أن زار تربة بني آمغار برباط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها وباشر في الرماية بالمدفع وكان رميه صواباً بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافأ عليه، وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب إلى عامله على مدينة آنفى وهو القائد الأجل الأنصح أبو عبد اللّه الحاج محمد بن إدريس بن حمان الجراري أن يتقدم إلى ثغر الجديدة ويقيم هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتثل القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله إلى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيراً بالتوقير والاحترام حسبما كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الأعظم المولى عبد الرحمٰن وابنه السلطان المرحوم سيدي محمد رحمهما الله فأجابه أعزه الله إلى ذلك وكتب له ظهيراً يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده وإخوته فلا يروا من جانبنا العالي بالله إلا الخير لأنهم خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلمهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم

سالف خدمتهم ولا نكشف عنهم جلباب حرمتهم بحول الله وقوته والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله في تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف، ولما قضى السلطان أعزه الله أربه من ثغر الجديدة نهض إلى آزمور فتلقاه أهلها بالفرح والسرور والبهجة والحبور، فهش لهم وقابلهم بما يناسب ودعا لهم بخير وزار ضريح الشيخ أبي شعيب وأبي عبد اللّه محمد واعدود رضي الله عنهما وقدم لضريحهما ذبائح وطاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالك كان مقابلاً للمرسى، ثم خرج من آزمور بعد يوم أو يومين فانتهى إلى مدينة آنفى فدخلها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور وعزل عنها القائد أبا عبد اللّه محمد بن إدريس الجراري وولى مكانه الحاج عبد اللّه بن قاسم حصار السلاوي، ثم كتب إلى أبي عبد اللّه الجراري المذكور بولايته على الجديدة وأعمالها ونص كتابه إليه: خديمنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنا أعفيناك من ولاية الدار البيضاء وليناك على الجديدة ولم نعزلك عنها سخطاً لسيرتك ولا هضماً لجانب خدمتك، وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقديماً للأهم فالأهم وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفوتكم ولا نهضم لكم جانباً والسلام في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا العامل من أمثل عمال السلطان نصره الله وأعقلهم وأرجحهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمن وابنه سيدي محمد وابنه المولى الحسن رضي الله عنهم فظهرت كفايته ونصيحته، وحمدت ولايته وسيرته، وهو الآن بهذا الحال حفظنا الله وإياه والمسلمين آمين، ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها وأمر الطبجية بنصب الأغراض المسماة بالقريبيات في البحر ثم أمر برميها وهو حاضر وربما باشر معهم، ثم اجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتأمله كما فعل بثغر الجديدة ووعد

بإصلاح المون على شاطىء البحر لأن البحرية يتعبون فيه وقت إنزال السلع ووسقها، وأقام بالدار البيضاء بالمحلة خارج البلد يومين وأهدى إليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين، وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وإيقاد الحراقيات بالليل وإرسالها في الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم فطاروا بذلك فرحاً حتى أنهم كتبوا بذلك لأهل دولتهم، ونشروه في كوازيطهم وأجوبتهم، وفي هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الأنجد الفاضل أبا عبد الله الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي باشدورا وسفيراً عنه إلى دول الإفرنج مثل دولة افرانسا، ودولة النجليز، ودولة الطاليان، ودولة البلجيك، واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالاً طائلة صيرها في وجهته تلك ورافقه في سفارته هذه الأمين الأرضى السيد بناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطي برسم القيام بخطة الأمانة والقهرمانية، وصاحبنا الفقيه الأديب فلكي العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي برسم القيام بخطة الكتابة، فوصلوا إلى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجوه وأحسنها وعادوا مسرورين في أواخر شعبان من السنة، وفي هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الأخبار بغرائب الأخبار قد اشتملت على كل نادرة وغريبة، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة، وعند قفوله وقدومه على حضرة السلطان أيده الله مدحه بقصيدة جيدة مطلعها:

أسالم دهري في المرام وفي القصد ... فينقض ما أبرمت للصلح من عقد

وأسأله الرحمى فيبدي ازوراره ... ونفرته عني فيا عظم ما يبدي

وكم لي استرضيه وهو مغاضب ... ولا يرعوي عما جناه على عمد

ومنها في آخرها:

وهذي بنات الفكر مني هدية ... إلى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فإن أهملت عدلاً فإني مهمل ... وإن صادفت وقت القبول فيا سعدي

وما كنت في باب القريض مبرزاً ... شهيراً ولكني تعاطيته جهدي

لأجل امتحاني لذت فيه بربنا ... فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد

فها أنا ضيف زائر لحماكم ... وحسبي رضاكم فهو نفس المنى عندي

ويا ربنا أعط الأمير مرامه ... وظفره بالمطلوب منك وبالقصد

ثم إن السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعه الجند الوافر والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهل دكالة وتامسنا فأوقع بعرب الزيايدة أهل تامسنا، وتقدم إلى رباط الفتح فدخله غرة جمادى الأولى من السنة فمكث به نحو سبعة أيام وعبر إلى سلا فزار أولياءها ودخل مسجدها الأعظم وصلى الظهر به وأمه في صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة البارع أبو محمد عبد اللّه بن الهاشمي بن خضراء ودخل السلطان أعزه الله خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد عواد فطلب من السلطان أيده الله أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة، ووصل أيده الله علماء العدوتين ومجاهديها على العادة، وقد كنت أنشأت قصيدة في غرض من الأغراض فلما اتفق قدوم السلطان أيده الله هذه المرة حولتها إلى مدحه، ونصها:

قلب كواه من النوى مقباس ... فغدا به الوسواس والخناس

ونحول جسم يشتكي ألم الضنى ... وجوى به تتصاعد الأنفاس

والدمع في الوجنات محمراً غدا ... ولدى الوشاة به انتفى الإلباس

إن الألى يستعذبون ملامه ... ما أن لهم بعذابه إحساس

قدماً عذلت ذوي الغرام سفاهة ... حتى غدوت بمنسميه أداس

وحسبته حلو الجنى فأساغني ... من بأسه ما لا يسيغ الباس

إن الذين علقتهم قد انجدوا ... بمها الخدور ودونها الحراس

أبداً أؤمل في حياتي وصلهم ... واليوم قد غلب الرجاء الياس

ما كنت أحسب قبل إلمامي بهم إن الظباء لها البيوت كناس
تحكى بدور التم يخفي ضوءها ضوء الشموس إذا بهن تقاس
من كل خود كاعب يهدي لنا نشر الخزامي عطفها المياس
تسبي بقد السمهري وباسم يرمي الشعاع كأنها النبراس
وكأن هاتيك الخدود وفاحماً في ظلها ورد حواه الآس
لله ما عيش تقضي بيننا فكأنما أيامه الأعراس
طاب السرور لنا به وتأرجت آصاله وافترت الأغراس
أيام روض اللهو غض نوره ومنادمي فيه المنى والكاس
بالله يا قلب استفق ودع الهوى إن الهوى غول النهى الفراس
أو ما رأيت المخلدين إلى المنا سكنوا الثرى وعراهم الإفلاس
واعمل ليوم لا تخس شعيرة فيه إذا ما ينصب القسطاس
وابك الذنوب بكاء خندف بعلها لما جلا عن ربعها الياس
وإذا حوت كفاك فابن مبادراً مجداً تخلده لك الأنقاس
من غير تبذير لمالك لا تكن حلو الجنا فتلوكك الأضراس
كم من فتى جاز الحضيض إلى الذرى وبنى على لم تبله الأرماس
وإذا وعدت فكن لوعدك منجزاً كيما ترى لك في الفخار غراس
فالمنع في جنب الوفاء صنيعة والتبر في جنب المطال نحاس
وإذا حصلت على الرياسة فاذكرن من كان يجمعه بك الإيناس
واحذر مناصبة الدنى فربما خان الحسام وطاشت الأقواس
كم يغن يوماً عن كليب مجده لما حشاه بالقنا جساس
وإذا تصاحب فاصحبن مهذب راز النهى وله بهن مراس
فالمرء ويحك إنما يذري به ويزينه الأصحاب والجلاس
وإذا البذي جفاك يوماً فاحتسب فالجهل بالطبع الكريم يساس
وإذا عرتك ملمة فاصبر ولا تكن الجزوع وهمك الإيجاس
واحفظ لسانك واله من عيب الورى كل امرئ بفعاله منقاس
وادأب على حفظ العلوم وكن بها ذا خبرة وملاذك الأطراس

فالعلم أنفع للفتى وأجله ... ما قد وعاه القلب لا القرطاس
وارو الحديث وكن به متأدباً ... والفقه حققه يطعك قياس
وأقم بعلم النحو لفظك ولتكن ... فيه المقدم إذ به الإيناس
كل العلوم إذا نظرت رأيتها ... والنحو مصباح لها وأساس
واكتب من الشعر المهذب نبذة ... فالشعر أفضل ما وعاه الراس
إن لم تقله فكن له مستحضراً ... إن رمت نطقاً يرتضيه الناس
كم من وضيع قد علا بقريضه ... رتباً تشرفه وحسبك شاس
إذ خلصته من الأسار وقده ... أبيات علقمة الفتى القنعاس
وإذا قصدت أخا النوال بمدحة ... فاقصد فتى له في الندى آراس
مثل الإمام أبي علي الرضي ... حسن الذي هو في العلى نبراس
الماجد الملك الهمام المرتضى ... فخر الملوك سنامها والراس
شملت بلاد الغرب رأفته وقد ... بهج الزمان وعمت الأرغاس،
وحبا الورى من نيله حتى لقد ... طاب السرور وطابت الأنفاس
سعدت بمقدمه سلا وتقدست ... مراكش الحمراء منه وفاس
أبدا سيوف العزم منه على العدا ... برق وغيث نواله بجاس
شهم بصير بالأمور مجرب ... يقظان من داء الضلالة ياس
حلب الزمان شطوره فمتى اعتصى ... داء الخطوب فرأيه النسطاس
يلقى الوفود بحشمة وطلاقة ... لا يختشى منه أذى وشماس
في الجود كعب والبسالة عامر ... والحلم قيس والذكاء إياس
فالله يحفظه ويحفظ ملكه ... حتى يصيب عداه منه عماس
ويشيد للإسلام من عزماته ... عزاً تطأطىء دونه الأجناس
وينيله مجداً ينسى ذكره ... في عزة قعساء ليس نقاس
فليعل ملك بني علي وليدم ... ما خلدت مروان والعباس

وقد تبعني صاحبنا شاعر العصر الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات في روي هذه القصيدة دون بحرها وهي من ميلادياته قال:

أدر كؤوسك فالسراء في الكأس واشرب على طرب بروضك الكاسي
وقم لتنظر وجه الدهر مبتهجاً مستبشراً بعد تقطيب وتعباس
والأفق طلق وذا النسيم منطلق مسكي نشر خلال الجو جواس
والأرض تضحك من بكا الغمام كما يشكو الكئيب على مستهزئ قاسي
كأنها وهي بالربيع حالية عواطل قد تحلت يوم أعراس
والورق من ضحك الأزهار نائحة كنوح صب على أحبابه آسى
والدوح زاهية الأفنان زاهرة تهدي البهاء إلى البهار والآس
كأنما الزهر إذ تراه منتشراً على جداولها الحباب في الكاس
كأنما طيب نشره شمائل من قد ساد بالمكرمات سائر الناس
إمامنا الحسن المجلي بطلعته عن الورى كل أزمة وقسقاس
كسا الرعية أثواب المنى جدداً من بعد ما اشتملت بكل إدراس
سبط الرسول وفرع من سلالته طيب الفروع ترى بطيب أغراس
خليفة الله من دانت لعزته شم الملوك برغم كل دمناس
أنداهم في الندى كفاً وأشجعهم قلباً وأسطاهم بكل دعاس
من ذا ينازله عند الجلاد وهل يهول الليث يوماً صوب ولاس
قد عمه النصر في ورد وفي صدر وحفه اليمن من ساق إلى راس
مولى تردى رداء المكرمات فقل ما شئت في شيم له واتواس
لم يمض مشبهه على الحقيقة في بني أمية أو أبناء عباس
من ذا يدانيه في حلم وفي كرم ومن يضاهيه في الإقدام والباس
يا كم به قوي الضعيف وامتلأت كف الفقير وأثرى رب إفلاس
سلا كمثل سلا الغرا وضرتها أو مثل مراكش وحضرتي فاس
فكم بها من مآثر له كرمت ليست تعد بأقلام وأنقاس
بل كل مصر وقرية له ديم تهمي لأهلهما بكل أرغاس
فدا الأمير أدام الله عزته طول المدى كل أنفس وأنفاس
إليكها أيها الجحجاح مائسة أزرت طلاوتها بكل مياس
خريدة من بنات الفكر غانية لرقمها يتمنى كل قرطاس

جاءتك تطلبك القبول عائذة ... بالله من شر وسواس وخناس

فليهنها أنها تشرفت بك إذ ... حوت معاني من مديحك الراسي

وأنها لك قد وافت مهنئة ... بليلة ذات أسفار وإهلاس

أكرم بها ليلة غراء قد فضلت ... بأفضل الرسل كل ذات إغباس

إذ أشرق الكون من أنوار مولده ... حتى كفاه سناها كل نبراس

والشرك في الهون قد أضحت طوائفه ... مستيقنين حلول البؤس والبأس

إذ هالهم أمر أحمد وأوقعهم ... في حيرة عبثت بهم وإبلاس

تيقنوا أنه ما كان يخبرهم ... بشأنه كل قسيس وشماس

وأصبحت جملة الأصنام ساقطة ... منكسات الرؤوس أي تنكاس

وفي انصداع البناء أصبحت عبر ... لهم كذا في خمود نار أفراس

والجن لا تصل السماء إذ منعت ... منها بشهب لرميها وحراس

ومن يرم منهم للسمع مسترقاً ... ينحط محترقاً منها بمقباس

محمد صفوة الباري وخيرته ... من خلقه الجن والأملاك والناس

جاءت شريعته البيضا مطهرة ... للدين من كل أدران وأدناس

ولم تزل أمد الأعصار رافعة ... عن الهدي كل شبهة وتدلاس

أصل الهدى والندى فليس يشبهه ... هطال غيث ولا تيار رجاس

فلا تقسه بشيء في مكارمه ... فما ترام خلاله بمقياس

فإنه البحر في فضل وفي كرم ... وفي الشجاعة ضيغم بأخياس

كانوا به يتقون في الوغا بدلاً ... عن اتخاذ مغافر وأتراس

أسرى به الملك الأعلى لحضرته ... والروح مونسه أتم إيناس

والليل أحرس ليس فيه يسمع من ... صياح ديك ولا عواء لواس

حتى دنا فتدلى ثم كلمه ... وقد رأى ربه بمقة الراس

ونال من فضله عزت جلالته ... ما لا يسام بأوهام وأحداس

فآب والدين أسست قواعده ... على أصول حميدة وأساس

تراه كالقمر المنير في غسق ... من الدجى بين أصحاب وجلاس

غدا يحدث والملا يصدقه ... وليس يرتاب غير المائق الماس

دعا على المعتدي عتيبة فغدا ... يوماً بدعوته قتيل هماس
ورد عين قتادة فصار بها ... بعد العمى ذا تمقل وإيناس
والماء من كفه السمحاء سال فكم ... من وارد عذبه الروي وكم حاسي
هو الرسول الذي جمت فضائله ... فليس تحصر أو تحصى بأطراس
مديم ذكر فإن تذهل لواحظه ... فالقلب ليس بذاهل ولا ناسي
فالأرض طاولت السماء قائلة ... لخير رسل ببطن خير ارماس
كل النبيين طرّاً لائذون به ... كمثل نوح ويونس والياس
كذاك موسى وعيسى والخليل به ... لدفع باس بيوم الحشر أباس
يا أكرم الخلق يا خير الورى شرفاً ... يا من أتانا بتطهير وتقداس
أشكوك داء أساي فأسه كرماً ... فما لداء الأسى سواك من آسي
قسا الزمان وفي قسم النوائب لم ... يعدل فيا ويحه من قاسم قاسي
لكن قصدتك والكريم قاصده ... ما أن يرد بخيبة ولا يأس
وقد توسلت للمولى بجاهك أن ... يشد بالشرعة البيضاء أمراسي
وأن يحسن أعمالي ومعتقدي ... فيه ويكشف بلبالي ووسواسي
وأن يعاملني بالعفو عن زللي ... وأن يبدل إقلالي بإقعاس
وأن يهيىء أسباب السعادة لي ... حتى أنيخ بذاك البيت عرماسي
إذ قلت من أمّ طيبتي ومات بها ... نال الشفاعة في أهل وفي ناس
صلى عليك إله العرش مانفحت ... نوافح الزهر من دوح وأخياس
صلى عليك إله العرش ما اعتصمت ... بك الخلائق من عار ومن كاس
صلى عليك إله العرش ما رمقت ... بيض القراطيس يوماً سود أنقاس
والآل ما قال نشوان بحبهم ... أدر كؤوسك فالسراء في الكاس

ثم نهض السلطان أعزه الله من رباط الفتح في عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصداً مكناسة وجعل طريقه على زمور الشلح فخرجوا إليه متذللين خاضعين متقربين إليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم الإتاوة والبعث فانقادوا، ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور فمكث بها أياماً يسيرة ثم نهض إلى فاس فمكث بها أياماً يسيرة كذلك ريثما

اجتمعت إليه الجنود وخرج قاصداً بلاد وجدة وبني يزناسن وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود، وكان خروجه من فاس منتصف جمادى الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غياثة جاعلاً الهضبة المعروفة بذراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل إنه وظف عليهم مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيئاً يسيراً وعجزوا وتعللوا بأن هذا الذي جرت العادة أن يدفعوا للملوك من قبل، وكانت هذه القبيلة لم يهجها هيج منذ قديم لتحصنهم بجبالهم وأوعارهم، ولهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف، فظهر للسلطان أعزه الله قتالهم فقاتلهم يوم الخميس أواخر الشهر المذكور واقتحم عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه واد وعلى حافتيه بناءات ودور، فحرق ذلك كله وهدمه وانتسف ما فيه منْ قمح وشعير وأدام، وغير ذلك وقطع منهم رؤوساً يسيرة، ولما كان الغد وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة إلا قليلاً وقدم المدافع والمهاريس أمامه واقتحم الشقة فتبعه الناس ودخلوا بلاد غياثة وتوسطوها وقاتلوا أهلها فهزموهم والسلطان أمام الجيش في موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيئاً يسيراً، وكانت غياثة قد وضعت الكمائن على الأنقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذاً واحداً يفضي إلى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة لا يدرك قعرها ولا يبصرها إلا من وقف عليها ولما وغل الجيش في مزارعهم ومداشرهم خرجت الكمائن من خلفهم ورموهم عن يد واحدة بالرصاص فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب إذ لم يكن في شوكة غياثة هؤلاء وكثرتهم ما ينهزم منه ذلك الجيش اللّهام ولو تلبثوا يسيراً وقاوموهم لهزموهم في الحال كما هزموهم أول مرة، ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شيء وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان وقتل سيدي محمد بن الحبيب نقيب الأشراف بالعدوتين، وأما الجيش وقواده فإنهم لما انهزموا صرفوا وجوههم إلى المهواة

التي ذكرنا وقصدوها على عمياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافتوا فيها تهافت الفراش في النار لا يعلم اللاحق ما وقع بالسابق إلى أن امتلأت من الخيل والرجال والأثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحيصاً منه فهلك من الناس والخيل ما لا يحصى، وبقيت أشلاؤهم ناشبة في تلك الأوعار تلوح مثل المجزرة، وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلص من تلك الشقوق ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا بصائرهم بعد الكائنة ثم انشمر غياثة بعدها إلى رؤوس الجبال وتركوا المداشر والجنات فاقتحهما السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه منهم أحد فعاث فيها وحرقها وجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وكتب أيده الله بذلك إلى الآفاق وذكر في كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفوا بلادهم انتسافاً ودوخوها أماماً وخلفاً حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكلكلهم وجرانهم، ثم توجه السلطان نصره الله إلى نواحي وجدة فانتهى إليها أوائل شعبان من السنة فتلقاه بنو يزناسن خاضعين تائبين فعفا عنهم لكونهم ثغراً من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين، إلا أنه عزل عنهم ولد البشير وبعث به مسجوناً إلى فاس وولى عليهم قواداً منهم من أهل الحزم والنجدة ووظف عليهم قدراً صالحاً من المال فشرعوا في دفعه في الحال والتزموا رد ما تعلق بذممهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية، ولما قضى السلطان أعزه الله غرضه منها قفل راجعاً إلى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك إلى الأمصار يقول: هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد القفول من حركتنا السعيدة، وحلولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتوحات الجديدة والإنعامات المزيدة، حلول عز وظفر وإسعاد ونصر من لدنه لم يكن بحيلة ولا استعداد، وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل، ونلنا بفضل الله في هذه الحركة من أثر الخير واليمن والبركة ما أثلج الصدور، وحمدنا غبه في الورود والصدور، وتركنا أهل تلك النواحي وساكني جبالها والضواحي على أحسن ما يكون صلاحاً واطمئناناً، وسلوكاً للجادة المخزنية بالقلب والقالب سرّاً

وإعلاناً، وأبقينا طائفة من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتأليف بقصد استيفاء ما بذممهم من الواجب، واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التي ألزموها ضربة لازب، وذلك كله من تيسير الله ورفده وفضله على عبده، فما النصر إلا من عنده، فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة، ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد، عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها، وأجرانا على عوائده الجميلة وفوائده الجليلة التي لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها، وقد اقتضى نظرنا العالي بالله إعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأييد الله ونصره، وتخلصوا في حمد نعمه الجزيلة وشكره والسلام في السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ، استمر السلطان أعزه الله مقيماً بفاس وجد في بناء مقاصيره ومنتزهاته ببستان آمنة من فاس الجديد، وكتب أيده الله إلى وصيفه أحمد بن مالك قائد الجيش السوسي بالمنشية من حضرة مراكش أن يبني له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرة المراكشية قبة فارهة ويبالغ في رفعها وتنجيدها وتنميقها، فشرع فيها في شوال من السنة المذكورة وكنا يومئذ نتولى إحصاء صائرها وصائر غيرها من البناءات المراكشية فكان ما صير على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنى بمكناسة القبة العظيمة التي طاولت السماء ترفعاً وذهبت في الجو صعداً بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سائس وغيره حتى صارت مثلاً في الطول والاشتهار، وبنى أعزه الله قبة عظيمة حفيلة على ضريح الشيخ العارف بالله تعالى أبي عبد اللّه سيدي محمد الصالح ابن المعطي الشرقاوي بأبي الجعد فصير عليها أكثر من ثلاثين ألف مثقال تقبل الله منه.

وفي عاشر شوال من هذه السنة أعني سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة الناسك قاضي رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمٰن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامي البريبري ودفن بزاوية حنصالة من البلد المذكور، وكان رحمه الله من أمثل قضاة الوقت ومن المتحريين للعدل، ولي

القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة، ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد، فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوه واستمر حاله على ذلك إلى أن توفي في التاريخ المذكور رحمنا الله وإياه والمسلمين.

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفي الفقيه العلامة الأديب شاعر العصر أبو عبد اللّه محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش، وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميناه محمداً العربي وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختوناً ولذا ذكرناه هنا وهو الآن حي أصلحه الله وأنبته نباتاً حسناً وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين آمين. وفي جمادى الأولى من السنة أخذ السلطان أعزه الله في الاستعداد بالحضرة الفاسية للحركة استعداداً لم يتقدم له مثله حتى أنه كتب إلى أخيه وخليفته بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه إليه من العدة الرومية وهي مكاحل مركبة فيها توافلها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها بالحبة الرومية، وأن يوجه إليه أربعمائة ألف وعشرة آلاف من الحبة المذكورة، وعشرة قناطير من البارود، ومائة قنطار من ملحه ومدفعين، وكتب أعزه الله إلى أمناء الصائر بأن يبعثوا إليه بثلاثمائة وستين سرجاً، وستمائة كسوة من الملف للعسكر، وخمسة عشر ألفاً من البلغة ومثلها من النعالة، وبعث أعزه الله عمه المولى الأمين بن عبد الرحمٰن إلى رباط الفتح لجمع عساكر الثغور وحشد قبائل دكالة وتامسنا والغرب وبني حسن وغيرهم، ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدير والجيش المتفرق بها، ثم كان خروج السلطان من فاس إلى مكناسة أواخر الشهر المذكور، ولما سمعت قبائل البربر بخروجه ارتابت وحذرت وظنت كل قبيلة أنها المقصودة ففرت مجاط وبنو مطير إلى رؤوس الجبال،

وفرت عرب عامر من بني حسن إلى زمور الشلح، وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو في هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الأمر بخلاف ذلك.

وفي هذه المدة وفد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسيس، والإصبنيول، والبرتغال، وغيرهم، وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم، ثم نهض السلطان نصره الله من مكناسة في أواسط رجب في جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمور الشلح فأظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشارتهم وزينتهم التي يستعملونها في مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به، ثم زحف إلى عرب السهول من أعمال سلا فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وكتب أعزه الله في العشرين من رمضان إلى الآفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وخضوع قبائل البربر له وتباريهم في طاعته وخدمته، وبذلهم من الجباية ما لم يكونوا يبذلون القليل منه لغيره، وذكر في كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجاري السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى أن قبيلة بني حكم قد أظهروا بعض الاعوجاج فقام إليهم إخوانهم من زمور فقوموا اعوجاجهم حتى فاؤوا إلى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم، ثم ذكر في كتابه أعزه الله أمر السهول وأنه بعد أن أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم بتأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم ورجاء نفع ما تقدم من أدبهم.

وفي ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة خسف القمر خسوفاً

كلياً بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء، وبقي كذلك نحو ساعتين ثم أخذ في التجلي شيئاً فشيئاً إلى أن عاد إلى امتلائه. وفي هذه المدة قلت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الإفرنجي بمراكش ورخصه بفاس، فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية، فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش إلى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال نحو مثقال، وتمالؤوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير، فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة، واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب في الآفاق يأمر الناس برد صرف الريال إلى ثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامتثل الناس ذلك ونودي به في الأسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس في الأسواق حتى صارت معاملة الناس ليست إلا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لأن التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال الغالي بالقراريط النحاسية التي صار صرف الريال فيها على النصف، فأمسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت، فكتب السلطان ثانياً برد أسعار السلع والأقوات على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الأثمان والمثمنات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس في معاشهم وأبى الله إلا أن تعود السكة إلى حالتها التي كانت عليها وقد بينا العلة في ذلك قبل هذا وأن السكك والأسعار لا تزال في الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها.

وفي يوم الأربعاء ثالث رمضان من السنة توفي عالم المغرب السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي، كان علامة متقناً فصيحاً عارفاً بصناعة الدرس حسن الإيراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال: إن له تآليف لكن لم

نقف على شيء منها رحمه الله، ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد زعير ولم يدخل رباط الفتح على قربه منها ووفدت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الأمصار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة، ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسي، وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد بريشاء التطاوني، والحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرون الفاسي، للذهاب إلى مادريد دار ملك الإصبنيول بقصد السفارة عنه إلى دولتهم والمكافأة لهم على مجيء باشدورهم حسبما مر التنبيه عليه ففعلوا وعادوا بحيث أدركوا عيد الأضحى من السنة مع السلطان أعزه الله بمراكش، ثم نهض السلطان بعد عيد الفطر من زبيدة يؤم البلاد المراكشية فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببني عمير وقبض منهم على ما يناهز أربعمائة مسجون سيقت في السلاسل والأغلال إلى السجن وفر بنو موسى إلى رؤوس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الأمان ودخلوا في الطاعة والتزموا الخدمة، ثم نهض السلطان أيده الله إلى مراكش فدخلها في عشر ذي الحجة من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم، وكتب إلى الآفاق يعلم الناس بما منّ الله به من النصر والتأييد والفتح والعز المديد، وأقام السلطان بمراكش في هذه المرة مدة طويلة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فكانت هذه السنة من أشد السنين على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والكروب وتلونت فيها النوائب والخطوب لا أعادها الله عليهم فكان فيها أولاً غلاء الأسعار وكان منشأه وابتداؤه من تثقيف السكة في آخر السنة الماضية، ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجيحت الناس وهلكت الدواب والأنعام وعقب ذلك الجوع، ثم الوباء على ثلاثة أصناف، كانت أولاً بالإسهال والقيء في أوساط الناس بادية وحاضرة، ثم كان الموت بالجوع في أهل البادية خاصة هلك منهم الجم الغفير، وكان إخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلاً ويستلبونهم من أكفانهم، عثر بسلا على عدد منهم وأمر

السلطان أعزه الله عمال الأمصار وأمناءها أن يرتبوا للناس من الأقوات ما ينتعشون به ففعلوا، وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى في أعيان الناس وأماثلهم فهلك منهم عدد كثير، وفي هذه المسغبة مد النصارى أيديهم إلى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والإرفاقات ثم تجاوزوا ذلك إلى شراء الرقيق منهم والأمر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين وألف فكان في أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات في المحرم منها الوزير الأعظم أبو عمران موسى بن أحمد وكان شعلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا وله، واستوزر السلطان مكانه الفقيه الأخير أبا عبد اللّه محمد بن العربي بن المختار بن عبد الملك الجامعي من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها، ويبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم وحماه المحترم، ويتجافى عن الطمع الذي هو أصل كل مفسدة في الدين والدنيا سدده الله. وفي ظهر يوم الأحد عاشر صفر من السنة المذكورة توفي شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد كان رحمه الله من أهل المشاركة في العلم والاعتناء به، كثير الدرس كثير التقييد ختمنا عليه رحمه الله عدة كتب كبار جعلها الله في ميزان حسناته، منها صحيح البخاري نحو عشر مرات، وصحيح مسلم ثلاث مرات، وشفاء القاضي عياض مراراً، وكتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي مرة، وأخرى إلى غزوة خيبر، وشمائل الترمذي مرتين بشرح أبي عبد اللّه محمد بن قاسم جسوس، وإحياء الغزالي رضي الله عنه، وعوارف المعارف للسهروردي، وتآليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره، وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمه الله ونفعنا به، وولي القضاء بعده الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الجريري عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمه الله يتحرى المعدلة في أحكامه وينتهج صريح الشرع في جميع أموره سدده الله وكلاه، وتولى

الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن علي بن محمد عواد وهو مجيد في الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله وإياه والمسلمين لما يحبه ويرضاه، وفي هذه الأيام استدعى السلطان أيده الله خديمه الأمين الأرضى السيد محمد بن الحاج محمد التازي الرباطي إلى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الأمين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض إليه في ذلك تفويضاً تاماً لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه، وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان وأشدهم غيرة على الدين والوطن حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد بمنّه عزها وفخرها. وفي ربيع الثاني من السنة ورد أمر السلطان أعزه الله على ولاة العدوتين أن يوجهوا عدداً من أمنائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسي المغربية فقدموا عليه بمراكش، وكان في جملتهم أخونا في الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد اللّه بن الهاشمي بن خضراء السلاوي فقال قصيدة في مدح السلطان نصره الله نصها:

لبيك لبيك يا خير السلاطين ... أدامك الله في عز وتمكين
دعوت عبدك فاستجاب مبتدراً ... وقد أناخ على الطير الميامين
يهدي إليك تحية مباركة ... أذكى وأطيب من مسك ونسرين
ممرغاً وجنتيه فارحاً جذلاً ... إذا فاز منك بتخصيص وتعيين
مؤملاً راجياً بلوغ مقصده ... مستبشراً برضى بالنجح مقرون
يا نجح سعيي ويا بشراي قد سعدت ... حالي وفزت بتقريب وتأمين
من مبلغ معشري أني أويت إلى ... ظل مديد يظللني ويؤويني
ظل الإله على عباده وكفى ... به كفيلاً وذخراً للمساكين
رب السماح فما معن بن زائدة ... وأين من راحتيه نهر سيحون
لله من ملك جلت مآثره ... عن أن يحيط بها حصر بتدوين
دعا المعالي فانقادت ملبية ... يضيق عن وصفها بطن الدواوين

له السعادة قد ألقت أزمتها ... والفتح رائده في كل ما حين
وبشر طلعته يسر ذا حزن ... وأين ما حل كان خير ميمون
حامي الشريعة والرحمٰن ناصره ... ماضي العزيمة لا يرضى بتوهين
في كل قطر ثناء عنه منتشر ... أي انتشار يفوق مسك دارين
ساس العباد بتدبير ومعدلة ... وأحسن الأمر في الدنيا وفي الدين
وليس يعبأ بالدنيا وزينتها ... لكنه بين مفروض ومسنون
وطبق الأرض عدله ونعمته ... مجاله بين تسكين وتحسين
بسعده الغرب قد بدت محاسنه ... فجر ذيلاً على بغداد والصين
وتاه مزدرياً بكل مملكة ... يميس في حلل ذوات تلوين
نعم الإمام الهمام المرتضى حسن ... فخر الملوك سلالة السلاطين
السيد الملك ابن السيد الملك ابـ ... ـن السيد الملك المعروف باللين
بحر خضم مغيث سيد بطل ... بد الليوث وفرسان الميادين
دانت بطاعته العدا بأجمعها ... مذ ألبست ملبس الصغار والهون
وفاق من قبله حلماً ومكرمة ... وسطوة بهرت أهل الأواوين
لا غرو إن نال ما فات الألى غبروا ... وشاد ما عجزوا عنه بتحصين
قد يدرك الآخر الشأو الذي قصرت ... عنه الأوائل في ماضي الأحايين
تبارك الله ما أسمى مفاخره ... كسباً وارثاً من الشم العرانين
ولا ترى الغرس قد زكت أرومته ... إلا أتى الفرع منه في أفانين
يا خير من أمه الراجي وأكرم من ... يثني عليه بمعرب وملحون
ويا ابن خير الأنام من نبوته ... له وآدم بين الماء والطين
ويا ملاذ الورى يا من سما كرماً ... يا نعمة عظمت يا كنز مسكين
يا منبع الجود يا تاج الفخار ويا ... مأوى العفاة ويا سلوان محزون
يا من روى عن أبيه رفع سؤدده ... يا من أوامره إليه تدعوني
وفدت ملتمساً رضاك يا سندي ... وليس شيء سوى رضاك يرضيني
فأمنن عليّ بعطفة تصاحبني ... مدى الدهور وللعلى ترقيني
بقيت ما شئت في عز ومقدرة ... ودمت في نعم بحق جبرين

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسأل منشئها عن مطلبه، فاقترح أن يؤذن له في الإفتاء وأن يعطى ظهيراً بالتوقير والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضي الاعتناء به، فأنعم عليه السلطان أعزه الله بالإذن في الإفتاء وبظهير الاحترام ونفذ له راتباً من أحباس جامع ابن يوسف إعانة له على الدرس به، ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصداً بلاد الغرب غرة جمادى الأولى سنة ست وتسعين ومائتين وألف، فاجتاز في طريقه بتادلا وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فأوقع بهم في أوعارهم وأعز معاقلهم وأوكارهم، وقطع منهم واحداً وعشرين رأساً، ثم زحف إلى بني موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبها، ثم سار محفوفاً بالنصر واليمن إلى أن دنا من مكناسة الزيتون فزحف إلى بني مطير وكان شررهم قد استطار في تلك النواحي كل مطير، فإنه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر، زحف بنو مطير هؤلاء إلى عرب دخيسة وأولاد نصير الذين أنزلهم السلطان بسايس وبوأهم إياه عوض مجاط، وأوقعوا بهم وقعة شنعاء، وقد صبرت العرب في ذلك اليوم صبراً جميلاً، حتى أن جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم في حومة الحرب لئلا يفروا، وقاتل إخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهم باليد وضربوا أعناقهم، وقتلوا منهم نحو مائتين، وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر، ولما انهزمت العرب عمد بنو مطير إلى مجاط فأنزلوهم بسائس على ما كانوا عليه قبل، ثم انطلقوا في الطرقات بالعيث والإفساد فيها والنهب للمارة، ولم يدخروا شيئاً من الشيطنة ليوم آخر، وكثرت الشكايات بهم على السلطان وهو بمراكش، فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لم يقدم شيئاً على تأديبهم فنهض إلى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم آكراي والحاجب وغيرهما وتقرى آثارهم في تلك الجهات حتى جاوزت عساكره الحاجب بمسايف كثيرة وتوغلت البربر في قنن الجبال، فأمر السلطان أدام الله علاه بني مكيلد أن يزحفوا إليهم من ناحية قبلة آكراي، فزحفوا وانبثوا على حدودهم إلى غابة افقفاق التي هي الحد بين بني مكيلد وآيت شغروسن وآيت يوسي، فحصروهم من تلك الجهات ثم نزل بإزائهم

آيت يوسي وآيت شغروسن وآيت عياش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا إلى حدود وادي النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادي النجاة القائد العربي بن محمد الشرقي المدعو بابا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز، وصار بنو مطير في مثل أفحوص القطاة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك والبوار ولفظتهم السهول والأوعار، ونهبت الجنود زروعهم القائم والحصيد، واستخرجت من مخزونهم الكثير والعتيد، ولما انتهى الحال بهم إلى هذه الغاية تطارحوا على السلطان بالشفاعات، وأكثروا من التوسل بالذبائح والعارات، فرق لهم وأقلع عنهم بعد أن ألزمهم إعطاء خمسمائة مرهون ووظف عليهم مائة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم، وشرط عليهم إخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم، وضمنهم طريق مكناسة وفاس وجعل العهدة فيها عليهم جرياً على عادتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه، وبعد ذلك نهض السلطان عنهم إلى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين وألف، فنهض إلى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش في النواحي لجباية الزكوات والأعشار والوظائف المخزنية، فانتهت السرايا والبعوث إلى آيت يزدق من برابرة الصحراء فأذعنوا وأدوا ما كلفوا به من الزكوات والأعشار وغيرها، وإلى آيت يوسي وغيرهم فأطاعوا وأذعنوا، إلا آيت حلى وهم بطن من آيت يوسي فإنهم انحرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فأوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عدداً من الرؤوس وساقوا مثلها من المساجين فعلقت الرؤوس بأسوار فاس، وبعد ذلك أذعن آيت حلى للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذي كانوا منحرفين عنه وكان ذلك في أواخر صفر من السنة المذكورة، ثم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة، وبعث إلى حضرته صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها:

أمل المديح محبراً يا منشد ... وأعده تطريباً فذلك أحمد

هذا أوان مسرة وسعادة ... هذي الليالي الغر هذا الموعد

أو ما ترى علم البشارة لائحة ... أو ما تشاهد نورها يتردد
هذا زمان ظهور طلعة أحمد ... في عالم الأجساد هذا المولد
طوبى لمن يروي غريب حديثه ... متأدباً ويعيده ويردد
طوبى لمن يقضي حقوق مديحه ... ويجيده نظماً بديعاً ينشد
فمديح خير الخلق أعظم قربة ... لكنه في ذا الأوان مؤكد
يا ليلة ما كان أعظم قدرها ... مع فجرها طلع النبي محمد
فاسرد شمائله الحسان وما له ... من معجزات بالنبوة تشهد
واذكر عجائب مولد قرت به ... عين المحب وضاق منه الأحقد
واجعل دعاءك للإمام المرتضى ... إن الدعاء له لحق أوكد
واملأ بدر مديحه أسماع من ... حضروا لديه وضمهم ذا المشهد
ساس الرعية صادقاً فعنت له ... أمم وقد كانت قديماً تشرد
من كفه فاضت مواهب جمة ... فالكف منه للعفاة المورد
طود أتآد شامخ ذو همة ... علياء يقصر عن علاها الفرقد
ما جود حاتم طيىء ما حلم أحـ ... ـنف إن ذا لهو الحليم الأجود
أزكى الملوك أرومة وأجلهم ... قدراً وأسبقهم لأمر يحمد
باهى به الغرب الممالك فاغتدى ... منه يغار قريبها والأبعد

ومن آخرها:

مولاي يا تاج الملوك وفخرهم ... فليهنك العيد الأغر الأسعد
لله موسم مولد لك عائد ... بمسرة موصولة تتجدد
لا زلت ممنوحاً جلائل أنعم ... ما اهتز في روض بهي أملد
لا زلت محروساً بعين عناية ... ما رنم الحادي وحبر منشد

وفي ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ورد كتاب السلطان أعزه الله على قاضي سلا بتعيين صاحبنا الشريف الأديب فلكي العصر أبي العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي للذهاب إلى مراكش برسم القيام على إحصاء صائر السلطان بها بدلاً عن الفقيه أبي محمد عبد اللّه بن

خضراء، فامتثل الشريف المذكور وسافر في التاريخ المذكور ومدح جناب السلطان أسماه الله بهذه القصيدة التي يقول فيها:

لبيك يا منقذي من لجة العدم ... سعياً على الجفن لا مشياً على القدم
فذا أوان سعود كنت أرصده ... وذي مناي كما في سابق القدم
فهو المرام وكل العز يعقبه ... ولا يحال بأني أحقر الخدم
قصدت أعتاب ملك شامخ بهج ... يقري الضيوف ويغني صاحب العدم
أنزلت رحلي بها وعندها أملي ... وهل يخيب نزيل الجود والكرم
شمرت عن ساعدي والأذن واعية ... فهاب أهل الحسام سطوة القلم
أرضى بذاك الذي أضاء مغربنا ... بعدله فغدا يميس في نعم
أزكى الأئمة شيمة وأرفعهم ... قدراً وأسبقهم لكل مغتنم
أميرنا الحسن المحمود سيرته ... تروع صولته الأسود في الأجم
نجل السلاطين قد أحيا مآثرهم ... ونال ما عجزت عنه ذوو الهمم
قد شاد للدولة الغراء مفخرها ... فساد عند ملوك العرب والعجم
تاج الملوك وفخرهم وسيدهم ... وخيرمن قد مضى في غابر الأمم
قد لاحظته السعود وهي في شرف ... وكل نحس عداه وهو عنه عم
النصر سابقه والسعد قائده ... والفتح يخدمه من جملة الخدم
والجود سيرته والحلم حليته ... والجد عادته فاحذر من الندم
ليث إذا ما أحس الحي سطوته ... ألقوا سلاحهم مخافة النقم
غيث إذا الأرض يوماً مسها عطش ... غوث توسل به لبارئ النسم
مدير عالم مفكر فطن ... ومفحم باهر بأفصح الكلم
كل الفهوم له ألقت أزمتها ... ونوره يهتدى به لدى الظلم
بها يقاوم من بغى ويدمغه ... بها يدافع أهل الريب والتهم
كم دبر الروم من كر ومن حيل ... توجو النجاح بها والنجح في عقم
يرى بنور حجاه كل عاقبة ... وعين تدبيره للأمر لم تنم
فصل الخطاب حباه الله مكرمة ... وحكمة عظمت من أبدع الحكم
فاطلب رضاه ودم على محبته ... مدا الدهور وجانب داعي السأم

فهو المنى لذوي الحجا وبغيتهم   وسيب يمناه مثل الزاخر العرم

يدني الأصول إلى نيل الوصول ويحـ   ـيينا بنعمته كالأرض بالديم

ما زال يحيي بها بلاد مغربنا   فاقرع بصدقك باب الجود تغتنم

واسلك سبيل الصفا تنل به شرفاً   واقبل نصيحة من حباك واستقم

يا غاية القصد إني راغب طرب   مستمسك بجوار منك لم يضم

مولاي يا من مزاياه وأنعمه   في الناس أشهر من نار على علم

مولاي أنت الذي تغني الضعيف إذا   ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم

بشراك إن الفرنج سوف يدركها   منكم صغار به تداس بالقدم

فأنت ذو مدد وهم ذوو نكد   وأنت ذو جذل وهم ذوو غمم

مولاي جد برضاك لي وخذ بيدي   واحرس جنابي به من سائر الألم

واجعل ثياب الرضى ستراً عليّ ولا   يرى به حبل عروتي بمنفصم

فها أنا ذاك عند باب سيدنا   أرجو قبولاً ووصلاً غير منصرم

أبقاك ربك في عز ومكرمة   بالله أمرك نافذ على الأمم

أدامك الله منصور اللواء على   كل الأعادي ولا برحت في نعم

وفي آخر هذه السنة ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبي محمد بن خضراء المذكور آنفاً لتوليته خطة القضاء بحضرة مراكش فامتثل ووفد على أمير المؤمنين أدام الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار إليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السريرة سدده الله وكلاه، وقال في وفادته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوي ونصها:

لبيك دمت مؤيداً ومظفراً   ولك الكمال كما تشاء موفرا

وافى خديمك أمرك العالي الذي   في ضمنه إسعاده بين الورى

إذ خص دونهم بأشرف دعوة   يا سعد من أضحى بها مستبشرا

فأجاب مبتدراً إجابة صادق   لم يلهه أهل ولا حب الذرى

وطوى المراحل كي يحل بحضرة   يلقى بها وجه الأماني مسفرا

فبدت له الدار المنيفة يا لها ... داراً أعز حمى وأبهى منظرا
ونحا الجناب المستجار بظله ... وأناخ فيه خاضعاً ومعفرا
يهدي إليك تحية مختارة ... أذكى من المسك الذكي وأعطرا
ويمد كفيه بصدق داعياً ... لك بالبقاء مهنئاً ومبشرا
ويجيد شكر مواهب أوليتها ... كرماً وحق لمثلها أن يشكرا
ويعيد ذكر محاسن أوتيتها ... ويصوغ مدحك صوغ تبر أحمرا
ويروم إقبالاً عليه بالرضى ... يا فوزه إن بالرضى هو بشرا
إن ناله نجحت له آماله ... ودنت مناه وارتقى واستبشرا
يا من يؤمل رفعة وسعادة ... يمم حمى المولى الهمام لتظفرا
ملك عظيم القدر جل كماله ... عن أن تعد خصاله أو تحصرا
ملك كريم الطبع عز مثاله ... خلقاً كريماً لم يضاه ومفخرا
ملك جزيل الفضل عم نواله ... كل الأنام وفاق غيثاً ممطرا
ملك أفاض على الرعية خيره ... وأنامهم في ظله متبصرا
ملك جميل سياسة وسريرة ... ويدل ظاهره على ما أضمرا
ملك ترقى في سماء مكارم ... فغدا به أفق المكرم مقعرا
ملك رحيم خاشع متواضع ... ويرى اكتساب الحمد أربح متجرا
قرت به عين الخلافة واغتدى ... من سعده ذا القطر أنعم أزهرا
من أهل بيت المصطفى أكرم به ... نسباً شريفاً ما أجل وأطهرا
جمع المفاخر مكسباً ووراثة ... وحوى مآثر حقها أن تؤثرا
ماضي العزيمة في الأمور مسدد ... في رأيه الميمون ليس مقصرا
قل للمحاول شأوه في مجده ... أو رفده أو حلمه أطرق كرا
هذا همام لا يشق غباره ... هذا همام لن يجارى إن جرى
مولاي يا أزكى الأئمة شيمة ... وافيت بابك أبتغي منك القرا
لا أبتغي إلا الرضى وكفى به ... فأنلني الحظ الجزيل الأوفرا
مولاي ما عندي إليك هدية ... إلا مديحك هاك منه جوهرا
نظمته فكرة مخلص متودد ... خذه إليك منظماً ومحبرا

لا زلت في نعم تدوم ونصرة وسعادة لا زلت أنت الأكبرا

لا زلت في حلل العناية رافلاً لا زلت في ملك كبير أبهرا

واعلم أن الأمداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الأصيل كثيرة، والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيرة، لا سيما لأصحابنا السلاويين ممن ذكرناه منهم وممن لم نذكره، ولولا خوف الإطالة لأثبتنا من ذلك ما يزرى بالحبر ويفصح بالذكرى والعبر، وفيما ذكرناه كفاية والله يجزي كلاًّ بنيته وخلوص طويته.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف فيها تجددت الشروط بين السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع التجارة، وكان من جملتها أن النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة الوظائف المخزنية المرتبة على الأبواب كسائر رعية السلطان، وقدر ذلك الوظيف ستة بلايين لكل حمل، وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة الزيتون قاصداً حضرة مراكش الحمراء فاحتلها في آخر السنة المذكورة وعيد بها عيد الأضحى.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف فيها تحرك السلطان أعزه الله لغزو بلاد السوس الأقصى، فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل دكالة وتامسنا بحمل القمح والشعير والتبن إلى مرسى الجديدة، ومرسى الدار البيضاء ليحمل منهما في المراكب إلى ساحل السوس الأقصى بقصد إرفاق الجيش وإعانته، وكان السبب في ذلك أن جنس الإصبنيول كان متشوفاً لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين، وكثيراً ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد إلى تلك النواحي فيستهوي أهلها بأسباب التجارة ونيل الأرباح فربما سكنوا إليه وربما نفروا منه، وتكلم السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتجوا بأن صلح تطاوين كان منعقداً على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الأخذ بشرطهم

المذكور وإلا أفضى الحال إلى ما لا يليق، فرأى السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض إلى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لا سيما وكان أهلها قد بعد عهدهم بإجراء الأحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها، فنهض إليها في رمضان من السنة المذكورة فانتهى منها إلى قرب وادي نول ومهد أقطارها وولى على أهلها القضاة والعمال، واتخذ هناك مرسى للوسق والوضع تسمى آساكا، وكتب في ذلك كتاباً لولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح: أما بعد، فإنا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة وصولته، وجيوش الله المظفرة موفورة، وجنوده سبحانه مقطورة، وأعلامها منشورة منصورة، نهضة معتمد على مولاه، متقلد لما قذف في قلبه فأبداه، متمسك بعروته الوثقى التي من استمسك بها بلغ مناه، وانتهينا بمعونة الله لمبدأ هذه الأقطار السوسية، وامتطينا صهوتها وهي ذلولاً في ربوع اليمن ساعيه، وبنود الله خافقة على مفارق الظفر وبذرى المجد سامية، تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متتابعة، وانتظمت في سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعة، فتسارعوا إلى ما إليه دعوا، وتلقوه تلقي الظمآن فنهلوا وكرعوا، وأوقدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحاً، واستضاؤوا بضياء نور الله غدواً ورواحاً، ومدوا أعناق الإذعان، وبسطوا أيدي المسالمة والإبقاء عليهم والامتنان، بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر، وارتعدت فرائصهم من هيبة الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر، وانتهبت أجفان المراسم المخزنية التي عفت بعد نومتها، فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، وصرفنا إليهم عنان الترتيب، بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب، فبوأنا من توسمنا فيه الأهلية للتولية على إخوانه مهاداً، وقلدناه أمرهم جمعاً وفرادى، وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بمعونة الله بسهم مصيب، وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب، حتى وقع التمكن من أزمتهم، وأجلسنا خاصتهم وعمالهم على أسرتهم، فاتصلت بهم المخزنية اتصال الأرواح بالأجساد، واستنارت هذه الأرجاء بنور الله استنارة عمت الحاضر والباد، فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا

مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين، ولو لم ننل من هذ الفتوح الباهرة بفضل الله إلا عشراً، لكان في جنب من قدم عهده بالمخزنية كثراً، ولكان ما عودنا سبحانه إلا الجميل، إذ هو المتصرف الغني القاهر القوي الكفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ثم ولينا عليهم من القضاة من فيهم الكفاية لإقامة شرائع الدين، ولم نأل جهداً في انتخابهم من أمثل المقلدين، علماً بأن الشرع عليه المبنى، وبه يعمر المغنى، ويغزر الحس والمعنى، ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا بإقرارهم على عوائدهم، وإبقائهم على أعرافهم ومحاتدهم التي عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدسين، أئمة المسلمين وأمراء المؤمنين، وكذا ظهائر من غبر من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين، فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجهم، وساعدناهم فأقررنا وجددنا لكل ظهيره، وأجريناه على ما أسس له من المجد وجعلناه نجيه وسميره، وحيث كان القصد الأهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية ذمار هؤلاء المسلمين، والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت إليه نفوس المؤملين، وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادي نول بمحل يسمى آساكا بأرض قبيلتي تكنة وآيت باعمران، إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتياع، يقيناً بأن سد أبواب الضرر من الأمر المحتوم، وإرشاد الضال في الشرع من المقرر المعلوم، تسابق القبيلتان المذكورتان اللتان تلقيتا جنابنا العالي حين عبرنا وادي والغاس وقصدنا بجيوس الله بلادهم قصد طبيب آس، فتلقوا ركابنا السعيد بمحل يعرف بآمصاو قرب مرسى تسمى باكلو، إذ هو الطرف الموالي لآيت باعمران المسمى بالساحل، وإليه شدت هذه المراحل، وبين آمصاو ومحل المرسى الذي أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميقاتية مقدرتان، فأتوا بشرفائهم وفقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقوبلوا بما قوبل به أمثالهم، وناسب أن يتصف به حالهم، ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة في تلك الأعمال، وحينئذ وقع الكلام معهم في شأن المرسى، فامتثلوا ما أمرناهم به من فتحها امتثال

من أضحى يتقلب في رضا الله ورسوله وأمسى، ثم وجهنا معهم سرية من أعيان الجيش معتبرة، ومعهم من الفقهاء والمهندسين من يعتد بهم في رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهج القواعد المقررة، والأعمال المحررة، اقتضى المقام والحال تسبيقها رفقاً بعباد الله، واعتباراً بأن الله سبحانه قد قضى الغرض ووهبه وأسداه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، قل إن الفضل بيد الله، وما بكم من نعمة فمن الله، ثم أقمنا في المحل المذكور لانتظارهم في تشييد منارهم، فإن انقلبوا بالمقصود فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن لم يشفوا الغليل شددنا بحول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلك المفازات، هذا وقد نصبنا قائداً من قواد جيشنا السعيد مختاراً من ذوي الرأي السديد، وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم، بقصد أن يكون إعانة لسائر عمال القطر السوسي من وادي والغاس إلى منتهى وادي نول وكليميم، يتفاوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهمات، ولا سيما إذا كان المخزن بعيداً عن هذه الشرفات، بعد ما عرفناهم بأنا أقمناه مشرفاً للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى، إيثاراً للنعمى ودفعاً للبؤسى، ففرحوا بذلك فرح الظمآن الوارد، والضال الواجد، ووقع الإشهاد عليهم بكل ما فصلناه، وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه، فكان ذلك تمام العمل الذي قصدناه، والمورد الذي أردناه وانتحيناه، والله تعالى يخلص في ذاته العمل، ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضله ومنته من الجهاد المتقبل، إنه جواد كريم متفضل غني حليم والسلام في متم شعبان عام تسعة وتسعين ومائتين وألف، انتهى كتاب السلطان أيده الله.

وفي أواخر صفر سنة اثنتين وثلاثمائة وألف قام نواب الإصبنيول من مراسي المغرب الأقصى بعد أن أقاموا بها نيفاً وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه في حرب تطاوين، وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليوناً من الريال الكبير، وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقية هي التي استوفاها الإصبنيول في المدة المذكورة أقام أمناءه مع أمناء السلطان بمراسي المغرب،

فكان كل فريق يستوفي نصف الداخل حتى تم العمل، وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبد الله محمد الهاشمي الطالبي من صلحاء أهل سلا، وكانت وفاته فجأة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفاً على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفرداً في بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتاً من غير أن يحضره أحد، وكان قد ناهز الثمانين وشاخ وابيضت لحيته ورأسه، وحضر جنازته الجم الغفير من أهل العدوتين سلا والرباط وازدحموا على نعشه وتناوبوه تبركاً به، وصلى عليه بالمسجد الأعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفن بالبيت القبلي من داره، وتردد الطلبة إلى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرها من الأمداح، وعظم مصاب الناس بموته وكيف لا وقد كان مصباح العدوتين بل وغيرهما في زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس بحيث لم يعهد ذلك ولم يرو إلا عن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم من أمثالهم رضي الله عنهم، وكان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للأولياء والصالحين وسيرهم وأخبارهم لا يسمع في مجلسه لغو ولا خوض في دنيا إنما هو سرد الأحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك، محافظاً على الصلوات وقيام الليل والأذكار وبذل المعروف والأمر به ما أمكن، وبالجملة فقد كان في سيرته وأخلاقه على مقتضى السنة النبوية وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ونفعنا بمحبتهم ومحبة أمثالهم آمين. وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن المدني كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الأندلس من فاس حرسها الله، ودفن بالموضع المعروف بالقباب، وكان رحمه الله فقيهاً عالماً متضلعا قولاً بالحق صادعاً به لا يهاب في ذلك كبيراً ولا صغيراً، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه، ولم يوه من صرامته ولا حده، وله عدة تآليف من أحسنها اختصار حاشية الرهوني على مختصر الشيخ خليل جدد الله عليه الرحمات آمين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف ففي ليلة العشرين من صفر منها وقع في النجوم تناثر كبير ورمي شديد تشريقاً وتغريباً وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد أذكرت قول بشار بن برد الأعمى في وصف الحرب:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ودام ذلك من وقت الغروب إلى نصف الليل، وفي هذه الأيام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد الحبشة والنوبة المتسمي بالمهدي وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمثلها، وكان للمهدي المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولولا أن التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرحت ذلك فإن أمره عجيب جداً، وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان أيده الله بتسريح ما كان موظفاً على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على أحمال السلع والتجارات من المكوس، وكتب في ذلك إلى عامل سلا وقته بما نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله: خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء في سائر الأبواب بالمدن والمراسي عن كل ما يمر به عليها داخلاً وخارجاً، وأصدرنا أمرنا الشريف لأمين المستفادات بثغر سلا المحروس بالله كغيره بإنهاض المشترين لأبوابه الجالسين للقبض بها والمتصرفين في شؤونها لحال سبيلهم، وإعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ما تصرفوا فيه إلى يوم الإنهاض، وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله وغير الأبواب من الأماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى ننظر في أمرها بحول الله، وأعلمناك لتكون على بال والسلام في ثاني ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، ولما ورد هذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم، نطلب الله تعالى أن يتمم نعمته على المسلمين بتسريح ما بقي موظفاً من مبيعات الأسواق ويريح الناس من شؤمه فإنه لا شيء أشأم من هذه المكوس على الدول نسأل الله العافية، وفي عاشر جمادى الثانية من

السنة المذكورة خرج السلطان مولاي الحسن أيده الله من حضرة مراكش غازياً بلاد السوس الأقصى وما وراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعايا بتلك البلاد وخروجهم على ولاتهم، وأن بعض تجار النجليز قد تسور على مرسى بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده في البيع والشراء ببعض القبائل الذين هناك وأراد أن يبني بالمحل المذكور، فنهض السلطان أيده الله لحسم مادة هذا الفساد، ولما توسط بلاد السوس وأصلح أحوالها وثقف أطرافها كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: وبعد، فإنا بحول الله القوي المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء في الحين أو بعد حين، المؤيد بعنايته عبده في كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين، كتبنا إليكم هذا يوم حلولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران، بحبوحة مجامع قبائل السوس الأقصى ومناخ الأعيان، نعلمكم بما واجهنا المولى سبحانه في هذه الحركة المباركة من تعاقب المنن والأيادي وابتسام ثغر الزمان، بما أملناه من العلي المنان، في هذا النادي لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وبيده مقاليد السموات والأرض وهو الولي والنصير والسميع والبصير، فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقساملة الساحلية أن تلقوا ركابنا السعيد أفواجاً أفواجاً ناشرين أعلام الفرح تجاه جيوش الله المظفرة سري وإدلاجاً حاشدين جموعهم مصحوبة بأعيانهم ومن يعتد به من فقهائهم وشرفائهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجاً مستنتجين للفوز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استنتاجاً، مقدمين بين يديهم هداياهم متترسين بأبنائهم وإخوانهم وسراياهم، مادين أعناق الامتثال، عاضين بالنواجذ على الخدمة وصالح الأعمال، فأتوا بمؤنتهم على قدر الاستطاعة، ومهدوا لسلوك الجيش السعيد ما صعب من طرقهم حتى صارت مسلوكة مشاعة، ونحن في كل ذلك نعاملهم بالبرور، ونبسط البشر إليهم ونقابلهم بما ارتسم فيهم من السرور، وها نحن بحول الله جادون في الخلوص إلى المقصد الذي لأجله نقلنا هذه الخطوات، واستعملنا

فيه الفكر وأسهرنا أحداق الاعتبارات، من صرف النظر لفتح مرسى آساكا، مركز ساحل وادي نول، ومجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهى ذلك المسكون ولا سيما من جاءت بينهما كالام والعنصر وهما كالتوأمين لها يستمدان منها ويرضعان خلاصة لبن ثديها، وهما القبيلتان الباعمرانية والتكنة ومن تراكم عليهما وارتدف، من قبائل العرب والبربر أو كان على حكمهما فيما ارتضع وارتشف، هذا إن كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والإسلام بعد الاستخارة مراراً في اختطاطها وتتحقق بصلاحيتها كشفاً واستبصاراً، ونتوخى في الإقدام على ذلك بحول الله الأسد من الأنظار، والمنهاج القويم الجاري على اعتراف هاتيك الأقطار، ثم إن كانت موافقة للأصلح أقدمنا وإن لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها إلى غيرها، قال الله العظيم: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:106] وما آل إليه الأمر نعلمكم به ونشنف آذانكم بما سنح من سره، فإنه لكل عمل نتيجة بعد العنوان، والله المولى المستعان والهادي إلى سواء السبيل، وهو نعم المولى ونعم الوكيل والسلام في تاسع شعبان الأبرك عام ثلاثة وثلاثمائة وألف. ثم تجاوز السلطان أيده الله قطر السوس الأقصى إلى صحراء كليميم فوفدت عليه هناك أشياخ عرب معقل وكبراؤها خاضعين مطيعين، وفرحوا بمقدم السلطان ووطئه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخذوا موضع خبائه الذي كان مضروباً به مزاراً يتبركون به إلى الآن، إذ لم يكونوا هم ولا آباؤهم من قبل رأوا سلطاناً بأرضهم ولا سمعوا بوصوله إليها، وأجروا خيولهم وإبلهم بمحضره ولعبوا عليها بالبارود، إذ عادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الإبل كما يسابقون على الخيل، ومن هناك وجه السلطان أيده الله كتيبة من جيشه إلى مرسى طرفاية فغيروا ما كان أحدثه أولئك التجار من النجليز بها، وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى إلى بابوراتهم التي كانت على ذلك الساحل، وأمر أيده الله ببناء مرسى آساكا واتخاذها محلاً للوسق والوضع هناك، ورتب الحامية والعسات بتلك

السواحل من آكادير إلى كليميم، وكتب بذلك كله إلى ولاة المغرب، وقفل راجعاً فأوقع في رجوعه بقبيلة ذاوتنان من أهل السوس الأقصى، ثم كانت عاقبة القضية النجليزية أن قام فهيا أرباب دولتهم وقعدوا وخبوا في التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان إليهم تسكيناً للأمر ودفعاً لما هو أعظم والأمر لله وحده.

وفي عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة غيمت السماء غيماً كثيفاً أسود وذلك بمراكش ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم، وتهدمت بمراكش دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس إلى أضرحة الأولياء بعد أن ودعوا عشائرهم وأحبتهم ولزموا الاستغفار والتضرع إلى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته.

وفي هذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الأعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التي كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان مثقفاً قبل ذلك وأبدؤوا في ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا، فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتاباً إلى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح: أما بعد، فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تجديد شروط التجارة بقصد تسريح الأشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقاً والأنعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فهي النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملاً بقول سيد الوجود ﷺ في وقائع وقضايا **«سددوا وقاربوا»** لإبقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل من ذلك سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه ﷺ بقوله: **«يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول: ليتني مكانك»** وحاشى لله

أن نتسبب للمسلمين في غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيداً، وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم والنبي ﷺ يقول: «**كلكم راع وكل راعٍ مسؤول عن رعيته**» والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمالؤوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه مما لا ينبغي ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثوقاً بديانته وأمانته فلم يشيروا فيه بخير واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلاً، وبينوا ما يترتب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان أول ما يترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية بل يؤدي إلى فقده بالكلية من هذه الإيالة، وأشياء أخر لا يفي بها التعبير هنا، وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش، وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم ردوه بما يطول شرحه ولا يفي به قرطاس ولما رأينا الأمر استحال إلى أسوأ حال أو كاد تداركنا هذا الخرق بالرفء وجنحنا إلى السلم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] الآية، وارتكبنا أخف الضررين، فاقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درءاً لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار، من تلك الأمور الممنوعة الوسق كالقمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل بأعشاره المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيها يثقف، ولا يسمع كلام من أحد في تسريحه ولا يقبل منه عذر فيه، وفي العام المقبل إذا كان صالحاً يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضاً، وإذا كان ناقصاً لا يقع اختبار بتسريحه المدة

المحدودة، ويبقى مثقفاً على أن ذلك ليس بشرط وإنما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر، ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين فأعلمونا به إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين، وأعلمناكم بما كان امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي﴾ [آل عمران:159] وإلا فما ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:11] والسلام في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أعزه الله. ولما قرئ هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما رآه السلطان وفقه الله إلا ما كان من بعض العامة الأغمار الذين لم يجربوا الأمور ولا اهتدوا إلى النظر في العواقب فإنهم قالوا: ما نعطيهم إلا السيف لكن لم يلتفت إليهم.

وقد كتبت في هذه المسألة جواباً مطولاً رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه: اعلموا حفظكم الله أن النظر في هذه النازلة يكون من وجوه، **أحدها** من جهة الفقه والحكم الشرعي، **ثانيها** من جهة الرأي والسياسة وهذا لا بد أن يجري على ضابط الفقه أيضاً، **ثالثها** من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار، فأما الوجه الأول فاعلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين لما يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين، هذه علة المنع وهي تفيد أمرين: **أحدهما** أن كل ما هو في معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح في المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج إلى التطويل بجلبه. **ثانيهما** إن ما لا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان، وعدم التقوي يكون بأحد وجهين: إما بكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوي به في الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان. وإما بكونه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى

حيث صارت آلاتنا عندهم هي والحطب سواء، والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعاً من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها وإتقانها، ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع إلا فيما قل، وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلاً عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوي شيئاً، وإن كانت هناك فائدة فهي كلا فائدة، هذا إذا لم نتوقع ضرراً منهم عند امتناعنا من البيع، فأما إذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه وللضرورة أحكام تخصها. فإن قلت: فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك بيع السلاح من الحربيين. قلت: إنما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالأحرى، ثم إني ما أقدمت عليه إلا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك، فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار، مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع، وما ذلك إلا لأن الأحكام المرتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف، قال القرافي في كتاب الأحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه: «إن قلت: ما الصحيح في هذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الأحكام فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولاً فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون وما لنا أحداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين؟ فالجواب إن إجراء هذه الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة

المتجددة، وليس ذلك تجديداً للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد» اهـ. ونحوه له في كتاب الفروق ونقله عنه الأئمة واعتمدوه فبان من هذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أياً كان إلا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم بلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلا أن يريد الله كفايتنا إياهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه وذلك ظننا به تعالى. فإن قلت: ههنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكبوا على شراء هذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها وفي ذلك من الإضرار بالمسلمين ما لا يخفى ولذا أفتى الأئمة بمنع الحكرة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض، فإن كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره، قلت: والناس اليوم والحمد لله في سعة وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل، والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظراً للقرائن القوية والعادة. فإن قلت: بل الغالب حصول التضييق لا أنه مشكوك فقط، قلت: ليس بغالب، فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله إلا الرخاء، بل الحق إن هذا من علم الغيب لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى في غيبه وهو حرام على أن النصارى إذا اشتروا منا شيئاً من ذلك فإنما يشترونه بالثمن الذي له بال ويعشرونه بالصاكة التي لها بال فتحصل الأرباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها، وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا، والحاصل أن الأبحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة، وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق، وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من

الفقه أيضاً إذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال فنقول: لا يخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعثهم وجبر كسرهم على غاية من الضعف والاختلال، وإذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضاً أن ينابذ الضعيف القوي أو يحارب الأعزل الشاكي السلاح وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقعد القائم على رجليه أو يعقل في النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء كما قال الشاعر:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة، فهذا رسول الله ﷺ وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحاً قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم. نحن المسلمون فكيف نعطي الدنية في ديننا، ورد أبا جندل رضي الله عنه إلى المشركين وهو يرسف في قيوده ويصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني والقصة مشهورة لا حاجة إلى التطويل بها، وقد عزم رسول الله ﷺ يوم الأحزاب أن يعطي عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو، وأين نحن منهم ديناً ويقيناً وبصيرة وثباتاً في الحرب، وقد أفتى الفقهاء رضوان الله عليهم لأجل هذا الوارد عن رسول الله ﷺ بجواز عقد الهدنة مع الكفار على إعطاء المال، انظر المختصر وغيره، فإذا كان إعطاء المال مجاناً جائزاً عند الضرورة فكيف لا يجوز إعطاء بعض المتمولات بأثمانها التي لها بال، وأيضاً فهؤلاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب وغاية مطلوبهم في هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشأ عنها في الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم، ولعمري أن في اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأي مضرة وما يعقلها إلا العالمون، ولكنها تستصغر بالنسبة إلى

مضرة المحاربة، وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم فتدعوه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلاً، وهذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ يوم الحديبية فإنه قال لأصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح: «**لقد صددنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم من الأمان**» إلى آخر ما قاله ﷺ، وإلى هذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61] ذكر تعالى ذلك عقب قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60] إشارة إلى أن الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد إلا أن يتداركنا الله بلطف من عنده، واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا والصحيح كما في الكشاف وغيره إن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً اهـ. وهذ مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وإن على مال كما مر فدلت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهذا هو المعلوم المسلم شرعاً وطبعاً، أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128] وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191] وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام الجامع الجاري مجرى المثل والحكمة، وعن علي رضي الله عنه: «ما دعوت إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلا أجبته»، فقيل له في ذلك فقال: «**الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروع**»، وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب، وقد قال شريك لمعاوية رضي الله عنهما في مقاولة جرت بينهما: «إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب» وقال الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير رضي الله عنه يوم مات يزيد: اذهب معي إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد فقال ابن

الزبير: أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين: أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب اهـ، فقد عاب عليه ذلك. من جهة الرأي كما ترى، وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] قول العباس بن مرداس رضي الله عنه:

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفي كتاب الفتن من صحيح البخاري ما نصه: كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ... ولت عجوزاً غير ذات حليل

شمطاء ينكسر لونها وتغيرت ... مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلاني: المراد أنهم يتمثلون بهذه الأبيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولاً اهـ. ولا شك أن هذه حالة العامة الأغمار الذين لم تضرّسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم إذا ظهرت مخايل فتنة نسأل الله العافية استشرفوا إليها وتمنوا خوضها وربما تألى بعضهم وقال: والله لئن حضرتها لأفعلن وأفعلن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تتمنوا لقاء العدو**» وحال هذا الغمر المتألي هو الذي أفصح عنه المتنبي بقوله:

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

فهذا القطر المغربي تدارك الله رمقه على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وإنما هو من

باب التخالف فافهم، بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذي يغني فيها شيئاً، بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط بجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعاً ويقعد جميعاً، وهذا معنى ما صح في الحديث من قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»** فإن لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين وقوة اليقين والألفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحريم وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكايد المشركين، وأهل المغرب اليوم إلا القليل منسلخون من هذا كله أو جله، فقد توالت عليهم الأجيال في السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلاً عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكايدها وإنما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم، وليس الخبر كالعيان، فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيراناً ولا يهتدي إليه سبيلاً، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء؟ وهل يكون في ذلك إن كان إلا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمته فإن ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير إذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية، وليس في طوق هذا إلا أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان إذا تأتى له ذلك، ولكن إلى متى فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مراراً فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام، والكلام في

هذا الفصل أيضاً طويل وفيما أشرنا إليه كفاية. فإن قلت: أراك قد صيرت الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهذا الكلام. قلت: أعلمت يا أخي ما هو الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم؟ اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على إعلاء كلمة الرحمٰن لينساقوا بذلك إلى الدخول في دين الله طوعاً أو كرهاً، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان إلى الفتنة أقرب منه إلى الجهاد، بل نقول إن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم فإن كنت تسارع إلى الحرب لتدركه جهلاً منك بحقيقة الأمر فاعلم أنك إنما تسارع إلى إيقاد نار الفتنة وإيجاد العدو السبيل عليك وإمكانه من ثغرتك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك نسأل الله العافية، اللّهم إلا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر النجليز على تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة النجليز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم وأنها وجهت إليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرى فمحقوهم محقاً مع أنهم لا يقاتلونهم في الغالب إلا بالحراب على عادة السودان في ذلك والنصر بيد الله، وأما الوجه الثالث وهو الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار فهذا حق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المتنورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين، وفي أودية الشهوات منهمكين تداركنا الله بلطفه، لكنا نقول وإن كان القول من باب الفضول: إذا نظرنا ما عامل الله تعالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن أيده الله وجدناه والحمد لله مصنوعاً له مصحوباً بالعناية الإلٰهية، مكلوء بعين الرعاية الربانية تصحبه السعادة أينما توجه ويختار له في جميع ما يحاوله، ولا تنجلي مهماته إلا عن

ما يسر الصديق ويسوء العدو، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً وهو مع ذلك جميل الظن بربه، حسن العقيدة في توكله عليه، مفرداً وجهته إليه حريصاً على استصلاح رعيته، ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيراً من ملوك عشيرته الذين تقدموه، وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته ونجاوبه في هذه النازلة بأن الأمر في ذلك إليه لا إلى غيره إذ هو الذي طوقه الله أمرنا وكلفه النظر لنا والنصح لدينا، وإن كان لا بد من المشورة فليست إلا مع أهل الحل والعقد، وقد قال العلماء: أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص لأنه يشترط في كل من ولي النظر في أمر ما من الأمور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه، وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه، وكيف لا وما عوده الله إلا خيراً ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ الآية، وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الأجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم في تدبيرهم وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم، تمم الله علينا نعمته آمين، وأيضاً ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة فحيث ساقت الأقدار إلينا هذا الأمر فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف اهـ. ثم إن الله تعالى لطف في هذه النازلة بمنّه اللطيف الجميل، وكفى مؤنتها من ذلك المطلوب بشيء قليل، وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاي الحسن أيده الله إلى علماء فاس كتاباً يستفتيهم في حكم التجارة في الأعشاب المرقدة

والمفسدة ويستشيرهم في تسريحها وإمساكها، ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح: أحباءنا فقهاء فاس الأجلة المرضيين وعلماءها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فطالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم الأمور لدينا وآكد من تسريح غيرها كالأبواب لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح، مع مزيد ثقلها على فؤادنا وكونها أحرج في روعنا، وكان أسلافنا قدسهم الله اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأفضى بهم الحال إلى إحراقها مراراً ولما رأوا تمالؤ الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق على مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها إلا من عنده ما يشريها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدين المذكورين، وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران: وهما إبقاؤها بيد المخزن وتسريحها، أما الأول فهو الذي فررنا منه وبينا علله، وأما الثاني وهو التسريح فمقتضاه إغراء الرعاع والسفهاء على استعمالها ولا سيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوي والضعيف فيصير ذلك ذريعة إلى إباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقيباً، ويأتي منها من بر النصارى ما لا حصر له فيعشر كسائر المعشرات المباحة وتنبني على ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة وأشكل الأمر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فإن الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله. وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله بجواب طويل مرجعه إلى حرمة استعمال تلك الأعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية رضوان الله عليهم، ولما كان المقصود الأهم للسلطان أيده الله هو الإشارة بكيفية التخلص من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز إليها في الكتاب الشريف كتب

إلى بعض الأحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه: اعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلي المخزن عن بيعها هو الحق الذي لا محيد عنه لما اشتملت عليه تلك الأعشاب من المفاسد العديدة التي كل واحدة منها كافية في الجزم بحرمتها وقد بينا شيئاً من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدي فلينظره من أراده فإنه كاف في هذا الباب، وأما ما أشار إليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضييق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم إلا الملي بثمنها دون الفقير الخ فهي مصلحة موهوبة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمتعاطيها على استعمالها إنما هو التبذل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها إنما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب إلا الفقراء المقلون، فمصلحة التضييق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى، وإذا كان كذلك فالواجب شرعاً ومروءة هو تنزيه منصب الإمامة الإسلامية والخلافة النبوية التي هي أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقذارها إذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين، وأيضاً ففي تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهييج للعامة عليها وإغراء لهم بتعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله، ولو نهوا عنها لما انتهوا بل ربما احتجوا بأنها لو كانت حراماً ما احتازها المخزن واستبد بربحها، ومن العادة المقررة أنه لا يمتثل إلا قول الممتثل ولا يؤتمر إلا بأمر المؤتمر، ولما انبرم الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ﷺ

ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كادوا يقتتلون اهـ. فكذلك نقول هنا إن العامة مهما رأوا الأمير تعاطى شيئاً تعاطوه، وإذا رأوه نبذ أمراً نبذوه لأن العامة مولعون بالاقتداء بالأمير ومن في معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه، وأما التخوف من الإتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثاني والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصاً وغيره عموماً سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، فقد صرح في الشرط الثاني منها بأن هذه الأعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولاً وخروجاً، ثم نبه على ذلك أيضاً في الخامس والسابع فلينظره من أراده وإنما يكون لهم بعد تخلي السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لأنفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر ألا ترى أنهم اليوم إنما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم إلى التجارة بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الأعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل، وإذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضاً فلا حجة للنصارى في ذلك ولا متكلم لهم فيه إذ ليس في امتناع المخزن حينئذ إلا تأكيد المنع الذي كان قبل وإنما تكون لهم الحجة إذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لأن حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الأجناس يكون لها ما لرعية الإيالة المغربية من التحجير والإطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر إلا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة في تثقيفه من أشياء مخصوصة فإنه يثقفه بنظره إذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء، وإن اقتضى نظره أن يستبد بأرباح شيء من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وإنما الممنوع أن يبيح لرعيته دون رعايا غيره أو يبيح لبعض الأجناس دون بعض هذا هو الممنوع في الشروط، أما هو في خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن

يستبد من تلك الممنوعات بما شاء، هذا حاصل تلك الشروط وإن طالت وامتدت، إذا علمت هذا فكيف يتخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الأعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضاً الإتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ. هذا لا يتوهم، نعم يتخوف من ذلك إذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به، وليس هذا مراد السلطان أيده الله وإن أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال: طالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة الخ. ولعل الكاتب أو المملي عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك المنوال وأوهم أن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يمتنع من بيع تلك الأعشاب تقذراً لها وتأففاً منها ويبيحها لرعيته من المسلمين وغيرهم، ومعاذ الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أيده الله من أخشى الملوك وأتقاهم لله وأحبهم لرعاياه وأحدبهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه**» فقد بان لك من هذا التقرير أن الواجب شرعاً ومروءة هو المبادرة إلى رفض التجارة في تلك الأعشاب وتطهير ساحة الإمامة الإسلامية من قذرها، قال الله تعالى في وصف رسوله صلوات الله عليه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:157] وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعي في تطهير ساحة المسلمين أيضاً منها لما أسلفناه آنفاً. فإن قلت: أما ما ذكرته من المبادرة إلى تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر إن شاء الله. وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه في غاية الصعوبة لأن العامة إذا حملوا على رفضها كرة وألجئوا إلى ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش، وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الإعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان.

ومن وصايا أرسطوطاليس الحكيم لتلميذه الإسكندر: يا إسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجئها أن تقول فيك إلا خيراً، فإن العامة إذا قدرت

أن تقول قدرت أن تفعل، أو كلاما هذا معناه، والحاصل أن فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مرنوا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك إلا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو إمام عادل، وإذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشؤوا عليها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن يؤدي إلى الهرج والخلاف جزماً أو ظناً فالواجب هو تركهم على ما هم عليه لأن تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي إلى منكر أعظم كما هو مقرر في الأصول والفروع.

قلنا: كل ما قررته في هذا السؤال حق لا محيد عنه، ولكن نحن لا نقول إن أمير المؤمنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كرة ويلجئهم إلى تركها بالمرة، بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدريج كما سلكه رسول الله ﷺ في تحريم الخمر على العرب، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ والعرب من أعشق الأمم للخمر وأشدهم بها ولوعاً وأكثرهم لها حباً حتى كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة، وضربوا عليها بالمعازف والدفوف، وحكموا لها على غيرها من مألوفاتها بغاية الشفوف، حتى نسبوا بها في أشعارهم، وتوجوا بها بنات أفكارهم، وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب، فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم إلى تحريمها كان ذلك على سبيل التدريج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية، وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التنفير منها، وما حرمت آلات اللّهو إلا من أجلها ومبالغة في تحريمها إذ هي وسيلة إليها كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الإحياء، وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم ما نصه: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق، قال أنس رضي الله عنه: حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما

حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر اهـ. إذا علمت هذا فنقول كذلك ينبغي لأمير المؤمنين أيده الله أن يسعى في تطهير رعيته من خبث هذه الأعشاب التي لا شيء أخبث منها كما أوضحته في كتاب الاستقصاء، ويسلك معهم فيها سبيل التدريج صارفاً همته إليه ومستعيناً بالله ومتوكلاً في ذلك عليه، فإنه لا يصعب ذلك عليه إن شاء الله.

إذا كان عون الله للمرء ناصراً تهيأ له من كل صعب مراده

وقال البوصيري لسيد الوجود ﷺ أقول ولأمير المؤمنين من حال جده قسط والحمد لله:

كل أمر تعنى به تغلب الأعـ يان فيه ويعجب البصراء

وكيفية التدريج في ذلك أن يأمر أيده الله علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسي بالتواطىء على ذم تلك الأعشاب وتقبيحها في نفوس العامة وإبداء معايبها لهم، وشرح مفاسدها لديهم، والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن، ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها، ويستمرون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك، فإن ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير فإن الهمم إذا تواطأت على شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما همم أهل الخير، وفي الحديث **«يد الله مع الجماعة»**، ثم بعد مضي هذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أيده الله إلى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئاً من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا إمامته، وأن لا يقبلوه ولو في اللفيف، ويوالي الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الأولى أو أكثر، فيزداد قبحها في نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها، ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الأمصار وعمال البوادي أن يتقدموا إلى رعاياهم بمنع ازدراعها وادخار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجوه، فإذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حينئذ عن بيعها وأمر بإحراق باقيها وسد حاناتها المسماة في عرفنا بالقهاوي ويمنع الناس من استعمالها في المجامع العامة كالأسواق ونحوها، ويشدد في ذلك ويعلن بالنداء في جميع الإيالة المغربية بأن حكم هذه

الأعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر في الأسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الأعشاب فيها، ومن فعل ذلك أدب أدباً يليق به ويرتدع به غيره، فهذا أقصى ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله، وإذا تم هذا العمل في نحو ثلاث سنين فهو قريب، وإذا يسر الله ذلك كان فيه بشرى للمسلمين وعنواناً لهم على تجديد دينهم، ولعمري ما كان أمر الخمر في العرب إلا أرسخ من أمر هذه الأعشاب في الناس اليوم بكثير، وأن الشبهة كانت فيها أقوى منها في هذه، وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز. قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف.

ثم إن السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزاً لجانب المخزن منها ومنع تجار الأجناس من جلبها إلى قطر المغرب إلا القدر الذي يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسي المغربية والحال على ذلك لهذا العهد.

ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف غزا السلطان مولاي الحسن أيده الله آيت ومالو من برابرة فازاز وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ظيان وبني مكيلد وشقيرين وآيت سخمان وآيت يسري وغيرهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد عمروا جبال فازاز وملؤوا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة، فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكناسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتدويخ بلادها إذ لم تكن تبذل الطاعة إلا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب في الأعصار المتراخية حسبما يعلم مما أسلفناه في هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم، فانتهى السلطان إلى تلك الجبال ودوخها ثم إلى قصبة آدخسان التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله فوفد عليه هناك جل تلك القبائل وبذلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبذلوا المؤن والأنزال للجيش والهدايا للسلطان إلا ما كان من آيت سخمان فإنهم أظهروا الطاعة أولاً كغيرهم وطلبوا من السلطان أن يبعث معهم طائفة من

الجيش ليدفعوا لهم المؤن وما وظف عليهم من الهدايا والأنزال فأرسل معهم السلطان مائتي فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاي سرور بن إدريس بن سليمان، وجده سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم، فلما توسطوا حلة آيت سخمان مع العشي تناجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقوهم على مداشرهم وحللهم، فلما كان وقت العشاء الأخيرة أظهروا علامة بينهم وسعت كل طائفة إلى من عندها من أصحاب السلطان فأوقعوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأفلت الباقون بجريعاء الذقن، وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاي سرور المذكور، وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة، وكانت هذه الفعلة الشنعاء بإشارة كبيرهم علي بن المكي من بقية آل مهاوش الذين تقدم الخبر عنهم في دولة السلطان مولاي سليمان رحمه الله، ثم أسروا من ليلتهم تلك فلم يصبحوا إلا بآيت حديدو وآيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقي منهم نفر يسير على ما قيل، فقبض عليهم من الغد وضربت أعناقهم، وقال بعض من حضر الوقعة إنهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم في مداشرهم، ولما انتهى الخبر إلى السلطان بعث في طلبهم طائفة من عسكره وضم إليهم خيل شقيرين إخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبوا أمتعتهم وانتسفوا رزوعهم وهدموا أبنيتهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا في النكاية، وتحامت خيل شقيرين ذلك إبقاء على إخوانهم وتعصباً للبربرية وربما دسوا إليهم من أعلمهم بالحال، وأمرهم بالإبعاد في الارتحال، ولما اطلع السلطان على خبيئة شقيرين أمر بنهب حللهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فأوقع بهم جيش السلطان وقعة شنعاء فأسروا منهم عدداً وافراً وضربوا أعناق نحو الثلاثين منهم وانتهبوا حللهم ومداشرهم حتى كأن لم تغن بالأمس، ومن الغد جاءت نساؤهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافع واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعفا عنهم، وكان هذا كله في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة أعني

سنة خمس وثلاثمائة وألف، ثم قفل السلطان راجعاً فدخل مكناسة الزيتون أواخر ذي الحجة خاتمة السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها وزار تربة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر أبا محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ثم تقدم إلى مدينة تطاوين فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها أعني سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يوماً وزار صلحاءها وتطوف في معالمها وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراؤهم في الإهداء إليه وبذل المجهود في الاعتناء بحاشيته وجيشه وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها في واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائها فتهدمت في الحال وضاع ذلك المال، ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة ثم منها إلى العرائش ثم عاد إلى فاس فأقام بها إلى أواسط شوال من السنة المذكورة، ثم غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاي سرور فأوقع بهم وقبض على نفر منهم ولم يتمكن منهم على ما ينبغي، ثم سار إلى مراكش فأعرس لجماعة من بنيه وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة وتباروا في الهدايا والتحف على ما ينبغي وبالغ السلطان في إكرامهم وإفاضة الإنعام عليهم واستمر أيده الله على كرسي ملكه وأريكة عزه وسلطانه والأيام سلم له والدنيا مهنأة بعزه ونصره والرعية طوع نهيه وأمره إلا ما كان من نواب أجناس الدول فإنهم أكثروا التردد إليه، والاقتراحات عليه، والتلونات لديه، فمرة بالنصائح الفارغة ومرة بالتظلمات الباطلة والحجج الواهية، وأخرى بطلب التخفيف من الأعشار والتنقيص من الصاكات إلى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية، وهو يدافعهم ويراوغهم وحيداً لا ناصر له ولا معين إلا الله الذي أيد به الدين، وعصم به الإسلام والمسلمين.

ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف خرج السلطان مولاي الحسن أيده

الله غازياً صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج إليها من فاس عقب عيد الأضحى من السنة المذكورة فقضى الأوطار من تمهيد تلك الأقطار على ما ينبغي، ثم كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال، فقال في كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه: وبعد، فإن الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الأرض وعمر به الأقاليم والديار، لم تكن لنا همة فيما عدا السعي في صلاح المسلمين، وانتظام أمورهم وجمع كلمة المؤمنين، ولم نأل في ذلك جهداً حتى يسر الله سبحانه قبل في الوصول إلى سائر قبائل رعيتنا السعيدة، وتخللنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة، فلم نترك من الأقاليم إلا النزر الغير المعتبر، أو ما كان في الوصول إليه إلا مجرد المشقة والضرر، وتفقدنا من أحوالها الأمور وأجريناها على ما يرضي الله من الاستقامة في الورود والصدور، وكان مما بقي علينا الوصول إليه هذه الأصقاع الصحراوية والمعاقل البربرية، التي كان يفهم قبل أنها صعبة المرتقى عديمة وجوه الارتقا، فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الأمر كله إليه، وعلمنا أنه تعالى إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب، وفتح إلى الوصول إليه المغالق والأبواب، وكل شيء منه وإليه كما قال ابن عطاء الله في حكمه: «إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك، وما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه»، فنهضنا من حضرتنا العلية فاس المحمية واستقبلنا هذه النواحي البربرية، ونصر الله وفتحه يواليان علينا في كل أوان، ويتجددان ما تجدد الملوان، ونعم الله لدينا متسابقة وتدبيرات قدرته الجلية لنا محكمة العقد متناسقة، فجاوزنا بلاد آيت يوسي مروراً وعبرنا بلاد بني مكيلد عبوراً، ووجدناهم جميعاً منقادين للطاعة أتم انقياد، ملقين لجانبنا العالي بالله الرسن والمقاد، واقفين مع النهي والأمر، لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو، واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة القصيد، فسيقت إليهم من الله الهداية وطويت عنهم أعلام الضلالة والغواية، وتلقونا بأوائل بلادهم خائفين وجلين ومن

سطوة الله فزعين، فجنحنا للعفو إيثاراً له وحرصاً على حقن الدماء وعدولاً عن القتال نظراً للصبيان والعجائز والشيوخ وضعفاء الحال، ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: 237] وبعد أن تحققت منهم التوبة وسعوا في تحصيل مرضات الله وخاطرنا الشريف بما محا عنهم الهفوة والحبوة، وصير سيئاتهم حسنات وأبعدهم عن المثلات، فقابلناهم بما أزال دهشتهم وفزعهم وكشف جزعهم، فانشرحوا وسايروا ركابنا الشريف في زيهم وجموعهم بسرور ونشاط، مغتبطين بمقدمنا السعيد أتم اغتباط، إلى أن خيمنا عليهم بأوطاط، فأظهروا من حسن الامتثال والطاعة ما وصلوا به إلى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبرة وشرعوا على الفور في دفع ما وظفناه عليهم من الأموال، متسارعين إلى الأداء في الحال، منقادين لكل ما أريد منهم من الأعمال، فنهضنا للتخييم بمركز بلادهم على وادي زيز، وحادي الميامين يحدو بالفتح المبين والنصر العزيز، فاستوفينا منهم فيه ما بقي من المفترض، وحصلنا منهم بعناية الله على غاية الغرض، ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة المدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم وحللنا ببلاد آيت مرغاد، فتلقوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد، مظهرين الإذعان في كل ما منهم يراد، وقاموا بأداء الفرائض والنوافل مبتهجين بطلعتنا الشريفة في سائر المنازل وكل ذلك بتيسير الله وتسديده وإرشاده وتوفيقه وإرادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم: «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك»، مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها المرهفات في الحقب، وحقنت الدماء بإراقة مداد الأقلام، وصينت الأعراض وأغنى الكلام السياسي عن الكلام، ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هي عليه من الوعورة وتعاظم الجبال التي يخال أنها تنادم القمر، وتصافح الكوكب مهما بزغ وظهر، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأوضح برهانه، إلى أن حللنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحاهم في جاهليتهم المفسد علي بن

يحيى المرغادي الذي طالما حذره الإنذار ولسان حاله يقول: لا حياة لمن تنادي، فوقع القبض عليه ووجهناه مصفداً إلى مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم، وصار حليف التأسف والندم، وأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من يستوفي من آيت حديدو ما وظف عليهم في المغارم، ويأتي من عندهم بما هو لهم لازم، فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد، فترصدنا من أعيانهم وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقاً حتى يؤدوا جميع ما فرض عليهم بحول الله، وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد، قوي المدد. مشتمل على ألوف من الخيل والأبطال، وليوث الحرب والنزال، إلى أن وصلنا إلى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة في انتظار جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف، وهم في عدد عديد، وقوة ما عليها من مزيد، يقربون من الأربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوابس، ومعهم من رماة إخوانهم عدد كثير معتبر، كأنهم سيل إذا انحدر، فنهضوا مع جانبنا العالي بالله في جموعهم وكثرة عددهم وعديدهم إلى مدغرة فتبركنا منها بمواطىء الأسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة وإسعاف، وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفاً من الريال، ووجهناها إليهم صحبة ولدنا مولاي عبد العزيز أصلحه الله وفرقت فيهم صلة لهم وأداء لحقوق القرابة والاتصال، وتزودنا من دعائهم الصالح بمقبول مستجاب، يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب، ونهضنا عنهم إلى بلاد عرب الصباح فتلقوا مواكبنا السعيدة في زيهم بفرح وانشراح، وقاموا بالواجبات من الميرة والضيافات، ودفعوا في الحين جميع المفروضات، ونهضنا من بلادهم إلى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الأكبر القطب الواضح ذي السر الأظهر، مولانا علي الشريف رضي الله عنه ونفعنا به، فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعامة لملاقاتنا رجالاً ونساءً وصبياناً وشيوخاً وكهولاً أفواجاً أفواجاً، جموعاً وفرادى وأزواجاً، وحصل لهم ابتهاج عظيم برؤيتنا، وامتلؤوا فرحاً وسروراً

بمقدمنا، وانشرحت هنالك الخواطر وسرت الضمائر، وأدينا واجباً بصلة رحم من هنالك من ذوي القرابة والرحم، وكان ذلك عندنا من الأمر المهم، وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة وجهناها إليهم مع ولدينا مولاي عبد العزيز ومولاي بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة، وأقمنا هناك ثمانية عشر يوماً بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الأسلاف قدسهم الله وما أجلها مآثر وأعظم سناها في تلك المظاهر، وعاينا ما لهم من الأملاك والأصول وتفقدناها بما أحيا مواتها كفاحاً، وازدادت به بهجة ونجاحاً، فلله الحمد بداية ونهاية، وله مزيد الشكر أولاً وغاية نسأله سبحانه أن يجعل ما ارتكبناه في ذلك كله خالصاً لوجهه، جارياً على سبيله المستقيم ونهجه، ويتقبله بأحسن قبول، ويبلغنا في صلاح المسلمين غاية المأمول ويجعل في طاعته الحركة والسكون، وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون، وقد نهضنا إلى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الإعانة والقوة والتيسير وبلوغ الأمنية، وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان، وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره في الإسرار والإعلان، وهو المسؤول سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختتام، ويبلغنا من كل خير غاية المرام والسلام في خامس عشر جمادى الأولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله.

وكان رجوعه إلى مراكش على طريق الفائجة، ولما انتهى إلى ثنية الكلاوي أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتى السلطان، ثم خلصوا منه بعد عصب الريق، وفي مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الإصبنيول من أهل مليلية وما والاها فمحقتهم زناتة محقاً وشردوا بهم من خلفهم استئصالاً وقتلاً، وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم في مساحة أرض مليلية على عادتهم في كثرة الاقتراحات والتلونات فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريباً من تربة ولي الله سيدي وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبركون

به ويدفنون عنده موتاهم، فلم يحل لنصارى مليلية بناء العسات وغيرها إلا بمحل يشرف على تربة الولي المذكور ويكشف عنها، فراودهم أهل الريف عن التخلي عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا على الامتناع وربما لسعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم في ذلك فإن هذا الإصبنيول منذ كانت له الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب معه في عناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لا سيما أوباشهم ورعاعهم، وتالله لقد سمعت أذناي من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان، وإذا رفعت الشكاية بهم إلى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم وديدنهم وإلى الله وحده المشتكى وله سبحانه العتبى حتى يرضى ولا حول ولا قوة إلا به، فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم، فلما احتل السلطان أيده الله بحضرة مراكش من هذه السفرة قدم عليه وفد الإصبنيول يطلبون الإنصاف من أهل الريف في هذه النازلة واستصحبوا معهم سرباً من الحمام الطيار بالمكاتيب والأخبار، ودار الكلام بينهم وبين السلطان في النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل، فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال، وتم الصلح على ذلك، وكانوا في تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام في القضية أطاروا به الحمام إلى أرباب دولتهم بمادريد، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفي آخر هذه السنة كانت وفاة السلطان مولاي الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه خرج من مراكش فاتح ذي القعدة من السنة المذكورة غازياً قبائل البربر الذين بجبال فازاز لا سيما آيت سخمان الذين غدروا بأصحابه وابن عمه حسبما تقدم قريباً، وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضاً خفيفاً في الظاهر ولكنه مزمن في الباطن، فكان يتكلف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم ويفعل جميع الأمور المخزنية، ثم خرج من مراكش في التاريخ المذكور على ما به

من الألم والمرض وتحامل حتى انتهى إلى وادي العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هنالك في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذي الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، وحمل في تابوت إلى رباط الفتح ودفن بإزاء جده الأعلى سيدي محمد بن عبد اللّه رحمة الله على جميعهم آمين.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره فالله تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجراً عن مصابه آمين.

وبايع أهل العقد والحل نجله الأرضى الأبر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً آمين، وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي وقد تسرب إليه جماعة من نواب الأجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم إنما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الأخبار ويتطلع العورات ويترصد الغفلات، ويحصي الأنفاس لعله تظهر له خلة أو تمكنه فرصة، نسأل الله تعالى أن يرد كيده في نحره، ويعديه بعاره وعره آمين. ولعمري ما الحامل على هذا ونحوه إلا قلة الحياء من الله ومن الناس، وإلا فما معنى الإقامة في سبيل التهنئة أربعة أشهر، ثم انظر ما يزاد منها بعد ذلك، وكان مما يؤثر من كلام النبوة الأولى«**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلم أن أحوال هذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس، وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سككهم ولا في

أسعارهم ولا في سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الأعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية، وأنا أحكي لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهي أني ذاكرت ذات يوم رجلاً من أهل جيلنا في هذا المعنى فقال لي: إن لي راتباً سلطانياً أقبضه في كل شهر قدره ثلاثون أوقية قال: فكنت في حدود الستين ومائتين وألف أقبض فيه عشر بسائط لأن صرف البسيطة يومئذ ثلاث أواق، فلما أخذت السكة في الارتفاع بعد الستين صرت أقبض فيه تسع بسائط وفلوساً، ثم بعد ذلك بسنة أو سنتين صرت أقبض ثمان بسائط وفلوساً، ثم سبع بسائط وفلوساً وهكذا إلى أن صرت اليوم في أعوام التسعين أقبض في الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيئاً من الفلوس اهـ. فانظر إلى هذا التفاوت العظيم الذي حصل في الجيل في مدة من ثلاثين سنة أو نحوها، فقد زادت السكك والأسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار، والعلة ما ذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها، والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطاً بهم فهم أرخص الناس أسعاراً وأرفقهم معاشاً وأبعدهم زيّاً وعادة من هؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى، بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان فليتأمل هذا الذي ذكرناه وليعرف منه سر الله في خلقه.

واعلم أيضاً أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علواً منكراً وظهر ظهوراً لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعاً متضاعفاً كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل إلى فساد، وعلم عاقبة ذلك وغايته إلى الله تعالى المنفرد بالغيب.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب، والله الملهم للصواب، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تقريظ الطبعة الأولى
لكتاب الاستقصا

تقريظ العلامة الأديب السيد
أحمد بن المأمون البلغيثي الحسيني

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه ذوي المجد الفخيم.

الحمد لله الذي أنعم علينا بالكمال الإنساني، وتكرم إلينا بأحسن التقويم في النطق اللساني، نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة على نعمه التي لا تحصى، ونشكره على مننه التي لا تعد بالاستقصا، ونصلي ونسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد أفصح من بالضاد نطق، المنزل عليه في حكيم الذكر وكذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاماً ندرك بهما مدارك الكمال، ونبلغ بهما منتهى الآمال أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني الكبير أحمد بن المأمون الحسني العلوي البلغيثي السجلماسي أصلاً وداراً الفاسي منشأً وقراراً، تقبل الله صالح أعماله وبلغه في الدارين غاية آماله، لما أن وقفت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب اللبيب ومحبوب الحبيب، قد جمع فأوعى وبلغ من الإتقان غاية المسعى، حيث احتوى على أخبار الأقطار المغربية واستقصى أهم الأوطار من أنبائها الشهية، فطابق اسمه مسماه، ووافق لفظه معناه.

كتاب رأيت الحسن فيه مفصلاً ... كما فصل الياقوت بالدر ناظمه
فكان له نشر يفوح وبهجة ... كما افتر عن زهر الرياض كمائمه

ولعمري أنه لتاريخ تشد إليه الرحال، وتعتكف بجامعه الأزهر جهابذة

الرجال، إذ أغنى وأقنى، وبلغ الناظر فيه ما تمنى، يغني عن غيره من الموضوعات في فنه بصحة أسانيده المرفوعات على أعلام حسنه تناديك منه سطوره والطروس، لا تلتفت لغيري فلا عطر بعد عروس، وكيف لا ومؤلفه العلامة من هو في غرة هذا العصر علامة الطالع الأسعد، والسند الأصعد، المحقق النقاد، والمشارك في جميع الفنون بالذهن الوقاد، المرتوي من نهر كل فضيلة بما راق وحلا، أبو العباس سيدي أحمد الناصري الدرعي شمس ثغر سلا، أبقى الله بركته وأدام في اكتساب المعالي حركته فللّه دره من مؤلف ألف بين الكمالات، وشنف السمع بأصح المقالات، في هذا التاريخ الذي أرخت في صحائف الكمال آياته، وخلدت في دفاتر المجد فضائله وكراماته، وقد زاده رونق الطبع نوراً على نور، وأفاده اجتلاء على منابر الظهور، فقرب نوره لمقتبسه، وسهل ملكه لملتمسه، ولما ملك حسنه خاطري وفؤادي، وسلك بين منهج قصدي ومرادي، وصرت به أنشط من ظبي مقمر، وأسلط عليه من ذئب متنمر، تشوفت لإنشاء امتداحه وتشوقت لإملاء أمداحه، بما لا أعده في شيء من طبقات الفصاحة عند فرسان هذا الميدان، ولكن عذري عند الواقع عليه أنه لقطة عجلان ما له في الأدب يدان، فقلت في ذلك مؤرخاً تمام طبعه في بداعة صنعه ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط:

أخبار أهل الهوى ما زال يرويها ... أحبار كأس رحيق الراح يرويها
حتى إذا سمعوا العشاق مخبرها ... هاموا وقاموا بألحان تواتيها
لكنهم أبداً في الدهر ما سمعوا ... ما نالني في هوى خود أفديها
خود بها الصب قد لذ العذاب له ... لما غدا وهو مطروح بناديها
يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته ... وبالتذلل والشكوى يناديها
قد استرقته في شرع الغرام وما ... رقت لما به من نار يقاسيها
حتى استبان لها أني على تلف ... وأن ما بي منها ليس تمويها
جاءت إليّ على فور تعللني ... بالعطف من طلعة سبحان باريها
فأتحفتني بحتف الرمز من مقل ... السيف حاجبها والحسن كاسيها
إن أومأت بلحاظ جرحت كبدي ... أو أعرضت بلغت روحي تراقيها

ما حيلتي في الهوى وما دوا كبدي العطف يجرحها والهجر يبليها
إني خلعت عذاري فاعذروني في حب الملاح فإن القلب يبغيها
فهل ملام على من صار ذا وله بغاة سلبت عقلي معانيها
إذا بدت لأولي الألباب شمتهم صرعى وطرحى جميعاً في مغانيها
يا حسن ما حدثتني عندما عطفت في شأن من ببعادي كان يغريها
قالت لك الوصل مني ليس يعقبه هجر على رغم من يبغي لك التيها
تخال نطق لماها عندما نطقت أخبار تاريخ الاستقصاء تمليها
ذاك الكتاب الذي فاقت صناعته كل التواريخ بالإتقان عاديها
للّه ما قد حوى من كل واقعة يلهيك عن نغمة الألحان راويها
ومن محاسن أحوال تتوق لها الأ سماع من كل ذي لب يدانيها
ومن نوادر قد كانت لذي أدب تود إذن العلا أن لو تحليها
أغنى وأقنى بأخبار مصححة قد كان في المغرب الأقصى دواعيها
كم من فوائد قد كانت أوابد لم تظفر بها به يستدعيك قاصيها
ما شئت من أدب غض ومن ملح تشتاقها همم ترحو توافيها
فاعكف عليه ونزه في بدائعه أبصار فكرك تستجني أمانيها
فإنه روضة أشجارها قصص أزهارها حكم إن رمت تجنيها
أنهارها من معين ما به كدر من كل معنى غدا للنفس شافيها
بل جنة جمعت آمال أنفسنا وتستلذ بها أبصار رائيها
لا غرو حيث غدا مفتاح بهجتها من فيه يرسل أعط القوس باريها
ذاك الأديب الأريب العالم العلم الـ همام غايته من ذا يجاريها
الناصري أبو العباس أحمد من نال العلا واعتلى أعلى أعاليها
نقاد كل فنون العلم ليس له بغيرها شغل دأباً يواليها
فكم أجاد وكم أسدى فوائدها في كل قطر من الأقطار يوليها
أنسى إياساً بأفكار له وقدت ترى شموس الهدي كشفاً لباغيها
فهذه قبسة من نور عمله قد مدت إليها أقاصي الأرض أيديها
نالت أشعتها الأيدي على بعد كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها

تريك سيرة قطر الغرب كيف مضت رأى الحقيقة في أفكار قاريها
إن التواريخ في أخباره كثرت لكن ذا قد حوى أصح ما فيها
بل زاد أنباء قوم لم تكن جمعت مما جرى عن قريب فيه تلفيها
مع ما حوى من علوم من مؤلفة بدت معالمها هدياً لآتيها
أعظم بها منحة قد عم نائلها وطاف في شاسع الأقطار ساقيها
فرقة الطبع قد نمت بها وسرت لطبع آياتها كيما تجليها
فعاد منها محياها كما قمر يهدي الضليل بها إن جا يماشيها
كمال طبع حلاها جاء وفق منى فالحمد لله كم نعماء يسديها
مع منتهى أرب قل كي تؤرخه معالم الطبع بالبشرى تناهيها

472 545 113 181

سنة 1312

هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقته أن تكون جمله التاريخ ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه عل ذلك بإشارة تتضمن تورية وبيان ذلك هنا أن جامع عدد قولي: «معالم الطبع بالبشرى تناهيها» هو عشرة وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين. أشرت لها بقولي: «مع منتهى أرب» ومنتهى أرب هو الباء التي باثنين فاستوفى عدد التاريخ، هذا وليلعم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب، أني حسبت حرف الشين من قولي بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشارقة فيها لا بألف كما هو اصطلاحنا، وهي أحد الحروف الستة التي اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد تمذهبت بمذهبهم في هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع، كما يستحسن ذلك مني سالم القريحة والطبع، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

تقريظ الأديب السيد إبراهيم الأزهري

حمداً لمن أضاء عقول الخلف بأنوار تواريخ السلف، وصلاة وسلاماً على من قص عليه أحسن القصص في كتابه المكنون، وأخبره بسرائر ما كان وما يكون، وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ بآياتهم الباهية الباهرة، وتزينت المحافل بمحاسن إحسانهم الزاهية الزاهرة أما بعد، فإن علم التاريخ كنز يجب التحلي بنفائس فرائده، وروض لا غنية لأحد عن مجاني فوائده، وكم للعلماء فيه من تصانيف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة، فلم ترتق أمة إلى عرش تمدنها إلا بتبحرها في هذا الفن وتفننها، وأن أجل ما ألف فيه كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، فهو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك، وقرب لمن يهمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك، وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضي الله عنهم لرفع أعلام الإسلام، وما هي عليه من المعارف التي لم تطو سجلات نشرها تعاقب الأيام لا سيما بلاد الأندلس وما لها من الحضارة والأبهة والنضارة، وما لبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعة قدرها جيلاً بعد جيل مع تحرير التراجم للملوك والأعاظم، وما دهم هذه البلاد من الوقائع الحربية التي أثارت غبارها يد الدسائس الأجنبية، وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات، وما بينها وبين الدول الأخرى من المواصلات والمعاهدات، كل ذلك بعبارات صادقة ومحررات شائقة.

حديث المغرب الأقصى قد استقصاه الاستقصا
كتاب جل مبدعه على نسق به اختصا
بدا والناس في شغف ليقتنص النهى قنصا
فتاهوا في محاسنه فأرشدهم بما أوصى
فيالله ما أعلى وما أغلى وما أحصى
فكيه في فكاهته صدوق القول إن قصا

علـيـه فـكـن أشـد الـنـا س فـي اسـتـقـصـائـه حـرصـا
تـجـد غـرراً حـوت درراً عـلـيـهـا تـكـثـر الـغـوصـا

وكيف لا ومؤلفه إنسان عين الأدب، وترجمان لسان العرب، جوهر بحور المعارف وسويداء صدور العوارف، من أجمعت الفضائل على التباهي بسيرته، وتسابقت المحامد إلى الاقتباس من مشكاة سريرته، ألفته الحكمة فسامرها وما سلا، علامة المشرق والمغرب فضلاً عن كونه تاج مجد سلا، بحر العلم الخضم الراوي، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي، ولأجل أن يعم النفع الجزيل بهذا الأثر الجليل، قام حضرة مؤلفه بطبعه في إحدى مطابع القطر المصري، حتى أشرق بدر كماله على الكوكب الدري بمشاركة كل من صاحب الحسب العاطر، والنسب الطاهر، صاحب الشرف والمجد السني السيد الحبيب البلغيثي الحسني، وحضرة من هو لكل كمال مصطفى جناب محمد أفندي مصطفى فهؤلاء السادة هم السبب في تعميم نفعه، وتعطير الآفاق بعبير طبعه بمطبعة حضرة الأفندي الشهيرة بإتقان الصناعة وكمال رونق الطباعة جزاهم الله بمنّه وفضله أكمل جزاء عن العلم وأهله وكان انتهاء طبعه الأنيق واستكمال حسنه الرقيق في أواخر شهر رمضان المعظم سنة اثنتي عشرة بعد الألف والثلاثمائة من هجرته ﷺ.

تم الجزء التاسع والأخير من كتاب الاستقصا



فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (الزاي)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (واو)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (الباء)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (و)

حرف (ي)